١٩

لَومُ الدَّهرِ وَتَمظهراتُهُ فِي الشِّعرِ الأندلسيّ

فِي عَصري الطَّوائف والمرابطينَ

دِراسةٌ تَحليليةٌ نَفسيةٌ

Blaming time and its manifestations in Andalusian poetry in the eras of the Taifas and Almoravids: a psychological analytical study

الأستاذ المساعد الدكتور محمد طه جواد ياسين الساعدي

Assistant Professor Dr. Muhammad Taha Jawad Yassin Al-Saedi

فلسفة آداب اللُّغة العربية – أدب أندلسي

Philosophy of Arabic Language and Literature – Andalusian Literature

جامعة ديالى – كلية التربية للعلوم الصرفة

University of Diyala – College of Education for Pure Sciences

المجلة المحكمة
هيئة التحرير

مستخلصُ البحثِ :

تحاولُ الدراسةُ هذهِ إمَاطَةَ اللِّثامِ عن ظاهرةِ لومِ الدَّهرِ فِي شِعرِ عَصري الطَّوائف والمرابطينَ الأندلسيينِ، وقد وقعَ الاختيارُ على هذا العنوانِ؛ لأنَّهُ لم يُدرسْ سابقًا بهكذا وسيلةٍ، على حدِّ علمنا، وانتخبنا هاتين الحقبتينِ؛ لأنَّ في نصوصِهما حضورًا كثيفًا لهذهِ الظاهرةِ، وَلَعلَّ ذلكَ يرتبطُ بكميةِ الألمِ الذي يعانيه الشَّاعر، والذي يزادُ كلما ازداد علو المرءِ في درجةِ التَّطورِ الحضاريّ. وسنتعاملُ مع عذلِ الدَّهرِ، أو الدُّنيا، أو الزَّمنِ، أو الليالي أو غير ذلك من مفرداتٍ تنتمي، أو تدلُّ عَلى الدَّهرِ، بأسلوبٍ واحدٍ، وَمن دونِ تفريقٍ بينَها؛ لأنَّ ذلكَ ما لمسناه عندَ الشُّعراءِ، إذ تعاملوا مع هذهِ المفرداتِ كأصلٍ واحدٍ، يؤدي المعنى المقصود باختلافِ المفردةِ، التي وظفها الشَّاعرُ، وكأنَّهم لم يركزوا على المفردةِ بقدرِ تركيزِهم على لَّومِه؛ لأنَّه أدمى قلوبَهم، وعكَّرَ صفوتَهم، وأحزنَ أنفسَهم، ليشكو من آثارِه، ويطلقوا صيحاتٍ مُدويةً، تحملُ التَّذمرَ، المشفوعَ بالحزنِ واليأسِ والضَّعفِ والانكسارِ، وقد اعتمدنا المنهجينِ التَّحليلي والنَّفسي في تحليلِ النُّصوصِ، واستخراجِ كوامنها؛ لأنهما الأقربُ للدِّراسةِ على حدِّ رؤيتنا المتواضعة.

Research summary:

This study attempts to unveil the phenomenon of blaming time in the poetry of the Andalusian Taifa and Almoravid eras. This title was chosen because it has not been studied previously in this way, to the best of our knowledge. We chose these two eras because their texts have a heavy presence of this phenomenon, and perhaps this is related to the amount of pain the poet suffers, which increases as one rises in the degree of civilizational development. We will deal with the reproach of time, the world, time, nights, or other terms that belong to or indicate time, in one style, without differentiating between them. Because that is what we have seen in poets, as they dealt with these words as one root, conveying the intended meaning with the difference in the word that the poet employed,

as if they did not focus on the word as much as they focused on blaming it; because it broke their hearts, spoiled their serenity, and saddened their souls, to complain about its effects, and to issue loud cries, carrying discontent, accompanied by sadness, despair, weakness, and brokenness. We have relied on the analytical and psychological approaches in analyzing the texts, and extracting their hidden meanings; because they are the closest to study according to our humble vision.

الكلماتُ المفتاحية : اللَّومُ، الدَّهرُ، التمظهرات، تقلبُ الأحوالِ، الفراقُ، الشبابُ.

التمهيدُ: اللَّومُ والدهرُ ومفهومهما :

أولًا : مفهومُ اللَّوم :

إنَّ اللَّومَ واللَّوْماءَ واللَّائِمَة في اللُّغةِ تعني : العَذْل. لَامَه عَلَى كَذَا يَلُومُه لَوْماً، فَهُوَ مَلُوم ومَلِيمٌ: اسـتحقَّ اللَّوْمَ، ولُمْتُ الرجلَ وأَلَمْتُه بِمَعْنًى وَاحِدٍ، ولَوَّمَه شَـدَّدَ لِلْمُبَالَغَةِ. واللُّوَّمُ: جَمْعُ اللَّائِم. وأَلامَ الرجلُ: أَتى مَا يُلامُ عَلَيْهِ. واسْـتلامَ الرجلُ إِلَى النَّاسِ أَيْ اسـتَذَمَّ. واسـتَلامَ إِلَيْهِمْ: أَتى إِلَيْهِمْ مَا يَلُومُونه عَلَيْهِ[١]. وقد تعددتْ الألفاظُ التي تُفيدُ معنى اللَّومِ، إذ ((يُقَالُ: لُمْتُ الرَّجُلَ عَلَى مَا أَتَى، وعَذَلْتُهُ، ولَحَيْتُهُ أَلْحَاهُ، وَأَتَّبْتُهُ، وَوَبَّخْتُهُ، وَعَنَّفْتُهُ، وبَكَّتُّه، وَقَرَّعْتُهُ، وثَرَّبْتُهُ، وَأَقْبَلْتُ عَلَيْهِ بِاللَّوْمِ، وَأَحَلْتُ عَلَيْهِ بِاللَّوْمِ، وَأَنْحَيْتُ عَلَيْهِ بِاللَّوْمِ، وَانْتَيْتُ عَلَيْهِ بِالْمَلامِ، ومَضَضْتُهُ بِالْمَلامِ ...))[٢]. ووردتْ مفردةُ اللَّومِ في القرآنِ الكريمِ في عدَّةِ آياتٍ شـريفةٍ، منها قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُـطْهَا كُلَّ الْبَسْـطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُـورًا ﴾[٣]، وقوله جلَّ جلاله: ﴿ فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ [٤].

ويمكنُ الجزم بأنَّ مفهومَ اللَّومِ في الاصـطلاحِ لا يخرجُ عن المعنى اللغوي، فالعلاقةُ بينَ المعنيين اللغوي والاصطلاحي للمصطلحِ علاقةٌ مترابطةٌ متلاصقةٌ؛ لأنَّها تؤدي الغرضَ ذاته، وهو محاولةُ تأنيبِ المعذولِ بطريقةِ التَّوبيخِ، أو التَّقريعِ، عمَّا فعله من أمرٍ ما، سببَ الألمينِ المادي أو المعنوي للائمِ، وليس من أهدافِهِ النصحُ، أو الإرشادُ والتوجيهُ، أو الإقناعُ، وإنَّما الإدانة الاتهام والتَّجريمِ[٥].

ومنَ الجديرِ بالذكرِ إنَّ سببَ اختيارِ مفردةُ اللَّوم، وتجاوز مفردتي العتابِ والشَّكوى هو أنَّ العتابَ لعله يكونُ من بابِ المحبةِ، والطاقةِ الإيجابيةِ، والرابطةِ، فعندما يسمعُهُ المتلقي يشعرُ بحبِّ المُعاتِبِ له، على خلافِ اللَّومِ الذي يشبهُ التوبيخَ، ويهدفُ إلى إثباتِ خطأِ الآخر، وينمُّ عن مشاعرَ سلبيةٍ. أما الشكوى فتعني التَّوجعَ من شيءٍ تنوءُ به النَّفسُ، وتتألمُ منه، كالمرضِ، أو الفقرِ، أو الشَّيخوخةِ، أو الحربِ، أو موتِ الأحبَّةِ، أو تقلبِ الدَّهرِ، أو الخيانةِ، أو غير ذلكَ, وتتجلى من خلالهِ بث ما يعانيه ذو الشَّكوى إلى الآخرين(٦)، معَ احتمالِ عدمِ ذكرِ المسببِ لذلكَ المرضِ أو الفقرِ أو غير ذلكَ، بمعنى آخرَ أنَّ الإنسانَ يمكنُ أن يشكو من تقلبِ الدَّهرِ من دونِ أن يلومَهُ لتقلبهِ، ويمكن أن نسمي ذلكَ باللَّوم الخفي، أو غير المصرح به، فالشَّاعرُ يطلقُ للمتلقي ما أصابهُ، بسببِ الدَّهرِ، من دونِ أن يذكرَه كمُسَبِبٍ ويلومه. لذا فإنَّ الشكوى أقربُ للومِ من العتابِ بموضوعِ دراستِنا، فهي الأخرى تنمُّ عن مشاعرَ سلبيةٍ، وتذمرٍ من أمرٍ ما، عكَّرَ الصفوةَ، وكدَّرَ النفسَ .

ثانيًا : مفهومُ الدَّهرِ :

يقصدُ بالدَّهْرِ في اللُّغةِ: الأَمَدُ المَمْدُودُ، وَقِيلَ: الدَّهْرُ أَلف سَنَةٍ. وَالدَّهْرُ: الزَّمَانُ الطَّوِيلُ، وَمُدَّةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَقَالَ شِمْرٌ: الزَّمَانُ وَالدَّهْرُ وَاحِدٌ. وقَالَ الأَزهري: الدَّهْرُ عِنْدَ الْعَرَبِ يَقَعُ عَلَى بَعْضِ الدَّهْرِ الأَطول وَيَقَعُ عَلَى مُدَّةِ الدُّنْيَا كُلِّهَا. ويقالُ: أَقمنا عَلَى مَاءِ كَذَا وَكَذَا دَهْرًا، وإِذا كَانَ هَذَا هَكَذَا جَازَ أَن يُقَالَ الزَّمَانُ وَالدَّهْرُ وَاحِدٌ فِي مَعْنًى دُونَ مَعْنًى. وقال الْجَوْهَرِيُّ: الدَّهْرُ الزَّمَانُ(٧). والدَّهْرُ ((يُعبَّر بِهِ عَن كُلِّ مدَّةٍ كَبِيرَةٍ، بِخِلَاف الزَّمَانِ، فإنه يَقَعُ على المُدَّةِ القليلةِ والكَثِيرة)) (٨). وجاء في معجمِ مقاييسِ اللُّغةِ أنَّ الدَّهرَ ((هُوَ الْغَلَبَةُ وَالْقَهْرُ. وَسُمِّيَ الدَّهْرُ دَهْرًا لِأَنَّهُ يَأْتِي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَيَغْلِبُهُ))(٩). وهذا يعني أنَّ نظرةَ المعاجمِ العربيةِ للدهرِ لا تخرجُ عن رؤيتينِ اثنتين، الأولى التصاقهُ بالأبدِ، وعدم الانفصالِ عنه، والثانيةُ انتسابهُ للزَّمنِ، بخلاف الظَّنِّ بأنَّهما شيءٌ واحدٌ، أو يُفرق بينهما بفروقٍ من الزَّمانِ نفسه .

وقد وردتْ مفردةُ الدهرِ في القرآن الكريم كقول تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾(١٠).

وقوله جلَّ جلاله: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾(١١). وقد تناولتْ كتبُ التَّفسير هذهِ الآيات الشريفة، ووقفتْ عندَ قصيديةِ الدَّهرِ فيها، وذهبَ بعضهم إلى أنَّ ((الدَّهرَ: الزَّمَانُ الْمُمْتَدُّ مِنْ دُونِ تَحْدِيدٍ بِبِدَايَةٍ أَوْ نِهَايَةٍ)) (١٢).

أما مفهوم الدَّهرِ في الاصطلاحِ فقد جاءَ في كتابِ (التعريفات) بأنَّه ((الآن الدَّائمُ الذي هو امتدادُ الحضرةِ الإلهيةِ، وهو باطنُ الزَّمانِ، وبه يتَّحِدُ الأزلُ والأبدُ))(١٣). ويُنظرُ إلى الدَّهرِ بوصفه قوةً زمنيةً ضاغطةً مؤثرةً، من أهمِّ سماتِها الفاعلية والتغيير، وهذهِ القوةُ لها حضورٌ متجذرٌ في تاريخِ الخبرةِ الإنسانيةِ، حضورٌ يُمكِّنُ من نفسهِ، بيسرٍ وسهولةٍ، بإلقاءِ نظرةٍ فاحصةٍ فحسب؛ إلى الأطرِ العامةِ لعلاقةِ الإنسانِ بالدَّهرِ – القوة, وإنَّ نظرةً كتلكَ ستحملُ إلى الاعترافِ بأنَّ هذهِ العلاقةَ ما فتئتْ تفرضُ نفسها على مجملِ الإنتاجِ الشِّعري (١٤). وهذا يعني أنَّ الدَّهرَ دائمُ الحضور، في آليَّاتهِ المُضمَرةِ، وفي حركتِه التأويليَّة، وما يُصاحبُها من تواترِ المصطلحِ الإرتباطيّ، الذي يشتمِلُ على معاييرَ تتراوحُ بينَ التكثيفِ والحِجاج والاسترسالِ، على أنَّه خطابٌ تأويليٌّ تعليليٌّ، بوصفه وحدةً تنِمُّ عن تنظيم ذِهنيٍّ لواقعٍ لِسانيٍّ ما(١٥)، وهذا يعني أنَّه ((حِقبةٌ مُمتدَّةٌ من حَدَثٍ سابقٍ إلى حَدَثٍ لاحق))(١٦)، من دونِ انقطاعٍ، أو توقفٍ عند حدثٍ واحدٍ .

وقد أكثرَ معظمُ الشعراءِ على مرِّ العصورِ والأزمنةِ من لوم الدَّهرِ، والشَّكوى من حادثاتهِ وتقلباتهِ، فكان وما يزالُ بنظرهم يحملُ سلوكًا لا يتَّصلُ بالإنصافِ والحكمةِ بشيءٍ، ولا يثبتُ على وتيرةٍ واحدةٍ، ونهجٍ معروفٍ، وسرعان ما يوجهُ سهامَهُ المؤلمةَ إلى النَّفسِ الشَّاعرةِ، معكرًا صفوتها، ومخيمًا عليها بالبؤسِ والحزنِ، فمن لومِ الدَّهرِ في الشِّعرِ الجاهلي قول زهير بن أبي سُلمى (١٧):

يا دَهرُ قَد أَكثَرتَ فَجعَتَنا ... بِسَراتِنا وَقَرَعتَ في العَظمِ

وَسَلَبتَنا ما لَستَ مُعقِبَهُ ... يا دَهرُ ما أَنصَفتَ في الحُكمِ

أَجلَت صُروفُكَ عَن أَخي ثِقَةٍ ... حامي الذِمارِ مُخالِطِ الحَزمِ

فالشَّاعرُ هنا يكررُ النِّداءَ بأسلوبٍ مؤثرٍ، يحملُ بطياتِهِ الوجعَ النَّفسي، ليلومَ الدَّهرَ، ويشكو فَوَاجِعَهُ المتكررةَ المتصلةَ، التي ما فتئتْ أن تتوقفَ وتستقرَ، ليصيبَهم بمصيبةٍ لها من الأثرِ الأكبرِ بأخذهِ سيدًا من ساداتِ القومِ، الذين قلَّ نظيرهم.

تمظهراتُ لوم الدَّهرِ في الشِّعرِ الأندلسيّ :

يمكننا أن نستدلَ على اللَّومِ إما من خلالِ الألفاظِ الصريحةِ التي تحملُ معناه، أو من خلالِ سياقِ الكلامِ، وهذا يأخذُنَا إلى عدمِ اشتراطِ أن تكونَ النُّصوصُ الشِّعريةُ تحملُ بطياتِها تصريحًا واضحًا من منتجِ النَّصّ، يُعبرُ فيهِ عن لومهِ وامتعاضِه، فقد لا نعثرُ على مفرداتٍ تكشفُ عن اللَّومِ الصريحِ كـ (لامَ، وعَذَلَ، ولَحَى، وَأَنَّبَ، وَوَبَّخَ، وَعَنَّفَ)، فهذهِ المفرداتُ لم تتفردْ باستطاعتِها على تحديدِ وجهةِ النَّصّ، وكشفِ اللثامِ عن صفتهِ، فسياقُ الأبياتِ العام كفيلٌ بتحديدِ ماهيته .

إنَّ الألمَ يقترنُ بشكلٍ أو بآخر بالتطورِ الحضاريّ، وهذا ما ذهب إليه الدكتور عبد الرحمن بدوي، إذ يرى أنَّ هناكَ ((ظاهرةً مشاهَدَةً لم تجدْ تفسيرَها المقنع حتى الآن من النَّاحيةِ النَّفسيةِ: وهي ازديادُ التَّألمِ بقدرِ ازديادِ علو المرءِ في درجةِ التَّطورِ الحضاريّ. فمن الملاحظ أنَّ الشُّعوبَ البدائِيةَ قليلةُ الشُّعورِ بالألمِ ... فكيفَ نفسّرُ هذا الموقفَ؟ إنَّ التَّفسيرَ الواجب أن يُقالَ هنا هو ... أنَّ تحقيق الامكانات ضئيلٌ لدى المتحضِّرِ، لذا كانَ الأولُ أقلَ تعرُّضًا للمقاومةِ، وكانَ الثاني أكثر، والمقاومةُ تنتجُ الألمَ، فالألمُ إذن يزدادُ بازديادِ التَّحضرِ))[١٨]. ولعل هذا ما يفسّرُ قلة لومِ الدَّهرِ، والشَّكوى من تقلباتهِ في العصورِ الأندلسيةِ التي سبقت عصرَ الطَّوائف، إذ نجدُ أنَّ الشَّاعرَ الأندلسيَّ في هذا العصرِ والعصورِ التي جاءت بعده قد سلَّطَ الضوءَ على عذلِ الدَّهرِ، والشَّكوى من آثارِهِ بشكلٍ لافتٍ للفكرِ، فقد وظفَهُ في كثيرٍ من الأغراضِ الشِّعريةِ، وعلى رأسِها الرثاء .

أولًا : لومُ الدَّهرِ لتقلبِ أحوالهِ، وشدَّةِ ظلمهِ وبطشهِ :

إنَّ النَّفسَ الإنسانيةَ متقلبةُ المزاجِ، بحسبِ الظروفِ المحيطةِ بِها، فقد يتحولُ الشُّعور بالتفاؤلِ والسعادةِ إلى حزنٍ وتعاسةٍ، أو غضبٍ وانفعالٍ، وسرعان ما يصبُّ الإنسانُ جماحَ غضبهِ بالدَّهرِ المتقلبِ، ويلومُهُ لتَلَونِهِ وتَبدُّلِهِ، وهذا ما لمسناه في أغلبِ النصوصِ الشِّعريَّةِ التي تناولتْهُ ووظفتْهُ؛ فالشَّاعرُ نظرَ إلى الزَّمنِ بوصفهِ قوةً زمنيةً مؤثرةً؛ لأنَّه يُسعدُ ويُحزنُ، ويُشفي ويَجرحُ، ويُضحكُ ويُبكي، ويعطي ويسلبُ، ويُحيي ويُميتُ، ويَتَصرفُ بأحوالِ الحياةِ جميعها، ومن السهولةِ عليه التأثير بأيِّ مخلوقٍ،

لذلك وُصِفَ في معظمِ النصوصِ بالغدرِ، والبطشِ، والفتكِ، والخيانةِ. وهذا لا يعني أنَّ ظاهرةَ الملامةِ للدَّهرِ ثابتةٌ راسخةٌ، دائمةٌ مستمرةٌ، وإنما تظهرُ عندما ينقلبُ الحالُ من فرحٍ لحزنٍ وألمٍ، إذ إنَّ معظمَ الشُّعراءِ الذين عذلوا الدَّهرَ بنصٍّ ما أو أكثر قد عبروا في غيرهِ بالتأكيدِ عن مشاعر فرحهم وبهجتهم؛ لأنهم وجدوا ما يطمحون إليه، ويرغبون فيه، لذا فهي ظاهرةٌ وقتيةٌ مرتبطةٌ بالنَّفسةِ، وما يحيطُ بها من ظروفٍ تسيطرُ عليها، وتقلبُها من حالٍ لحالٍ آخر. وهذا ما لمسناه في قول ابن الزقاق البلنسي من قصيدة يرثي بها أحدهم، واجهَ فيها حالتهُ النَّفسية المضطربةَ المحاطةَ بهاجسي الألمِ والحزنِ(١٩):

ألا عظةٌ إنَّ الزَّمانَ خَؤونُ ... وإنَّ ملمَّاتِ الزَّمانِ فنونُ
لقد آن أن تُجلى الخُطوبُ عن العمى ... وتُلْفى شكوكٌ للمنى وظنونُ
فكم قد مَضَتْ من أُمَّةٍ إثْرَ أُمَّةٍ ... وقَرْنٌ يليه بعد ذاك قرونُ
وقد أبصرَتْ عيني وأَصغتْ مسامعي ... لو انَّ صفاةً للفؤادِ تلينُ
فلم أرَ إلاَّ وافداً قد تحللت ... عُرى رَحْلِهِ حتَّى يُقالَ ظعينُ
ولا غابراً إلا على إثْرِ سالفٍ ... أَوائِلُهُمْ للآخرينَ رُهونُ
ولا فرحاً إلا وأَعقبَ يَوْمَهُ ... من الدهر نَوْحٌ دائمٌ وشجونُ
فَبُؤْسَا لصرفِ الدهر كم مرَّ عنده ... تراثٌ لنا لا ينقضي وديونُ
وقد كان يُنْبي عن نصيحةِ مُشْفقٍ ... علينا ولكنَّ النصيحَ ظنينُ
وبالأمسِ قد رُوِّعتُ ملءَ جوانحي ... بنعيٍ يَسُدُّ الأفْقَ منه طنينُ

إنَّ الشَّاعرَ كما هو ثابتٌ إما يخاطبُ المتلقي بصيغةِ الحاضرِ، أو بصيغةِ الغائبِ، وعلى اختلافِ الصِّيغةِ فإنَّ غرضهُ واحدٌ، وهو التَّعبيرُ عمَّا تجيشُ بهِ النَّفسُ الشَّاعرةُ. إنَّ ابن الزَّقاق هنا يتحدثُ للآخرينَ عن أفعالِ الزَّمانِ المتغيرِ، ويصفُ تغيرهُ بالخيانةِ، كأنَّه عقدَ معهُ اتفاقًا على حَالٍ ما، يَسرُّ نفسَ الشَّاعرِ، فعمدَ الزَّمانُ إلى الإخلالِ بهذا الاتفاقِ، والانقلابِ عليه من دونِ سابقِ انذارٍ، ووجهَ للطرفِ الآخر ما يكسرُ النَّفسَ، وينزلُ عليها الظلامَ المخيمَ، بمصائبه العَظِيمَةِ، الشَّدِيدَةِ، المفاجئةِ، التي تصدرُ عن فنانٍ حاذقٍ، يجيدُ انتقاءَ النازلاتِ والحَادِثَاتِ المؤلمةِ، ثم يبدأُ الشَّاعرُ ببيانِ مؤلماتِ

الدَّهرِ، فما من أُمَّةٍ خرجت إلا ومضتْ لتأتي أخرى بعدها، وما من قرونٍ إلا وسيأتي غيرها، وما من نازلٍ وافدٍ إلا وأصـــبحَ ظاعنًا مغادرًا، وما من جديدٍ إلا وتغيرَ لقديمِ تالفِ، وما من سـعادةٍ إلا وسـتنقلبُ لبؤسٍ وتعاسـةٍ، وكلُّ ذلكَ بفعلِ الزَّمانِ، الذي لا تدومُ الأشياء على حالها بسببهِ، بوصفِ غادرًا حصيفًا.

إنَّ اللَّومَ واضـــحٌ جليٌّ بهذا النَّصِ، لا غبار عليه، ولا ســيّما بعد أن بدأه الشَّـــاعرُ بالتصـــريح عن الخيانةِ، ليتنقلَ بعدَ أن فصَّـــلَ بتقلباتهِ المتمثلةِ بثنائياتِ (الجلاءِ والعماءِ)، و (والماضـــي واللاحق)، و (والوافدِ والراحلِ)، و (والغابرِ والســـالفِ)، و (والأولِ والآخرِ)، و (الفرحِ والنوحِ) إلى العذلِ المباشرِ بقوله : (فَبُؤْسَا لصرفِ الدهر كم مرَّ عنده ...)، فضـــلًا عن ذلكَ نجدهُ قد وظفَ النُّونَ المضـــمومةَ رويًّا، بإيقاعِها الهمسيّ لتوافقَ آهاته وآلامه. إنَّ الحالةَ النفسيةَ لابن الزَّقاقِ جاءت متألمةً، مستسلمةً لملماتِ الدَّهرِ؛ لأنَّها وضـعتْ وسـطَ عينيها مصـيرَها المحتوم، وكأنَّ الشَّـاعرَ يطلبُ من نفســـهِ ألا تغتر بحالٍ ما، ولا بفرحٍ، وينبهها على ذلك، ويقولُ لها إنَّ هذا الدَّهرَ الخؤون سـينقلبُ عليك، بلحظةٍ ما، ويكسـرُ شـوكتك، وتزولين عاجلًا كما حدثَ مع غيرك ممن ســلف، ولومنا هذا له لا يُجبرُه على المُدَاهَنَةِ، الأمرُ الذي زادَ من ســوءِ الحالةِ النَّفســـيةِ للشَّـــاعرِ، بعد أن أيقنتْ مصـــيرها بالفناءِ، كما حصـــلَ مع الأممِ الماضـــية. لذا فالمرءُ بينما يقطعُ شـوطَ الحياةِ كان وما يزالُ مسـتسـلمًا للعبةٍ أزليةٍ راسخةٍ، لا تنتهي إلا نهايةً واحدةً معروفةً هي فناءُ الإنسانِ، وتجددُ الزَّمانِ(٢٠).

ويعدُّ ابنُ حمديس واحدًا من شعراءِ المدَّةِ المحددةِ للدراسةِ، الذي لجأوا إلى لومِ الدَّهرِ؛ لأنَّه عنتهم، وشـيبهم بأحوالهِ المتقلبةِ، التي لا يقوى عليها أحدٌ، مفتتحًا عذله بأسلوبٍ يدلُّ على حالتي العجزِ والإنكارِ التي تملَّكتْه أمامَ مشاقِّهِ، قائلًا (٢١):

هل أقْصَـرَ الدَّهرُ عن تعنيتِ ذي أدبِ ... أو قالَ حَسْـبِيَ من إخمالِ ذي حسـبِ

وكيفَ يَصـــفو لنَا دَهْرٌ مَشَـــاربُـهُ ... يخوضـــهـا كُـلَّ حينٍ جَحفـلُ النُّوَبِ

إنَّ الزَّمـانَ بمـا قَـاســـيـتُ شـــيَّبَني ... ولم أُشَـــيَّبْـهُ هـذا والزَّمـانُ أبـي

ولو خلا الدَّهرُ ذو الأبناءِ من عَجَبٍ ... أكثرْتُ منـــه ومن أبنـــائِـــهِ عَجبي

فقد عمدَ الشَّـــاعرُ إلى تكرارِ توظيف الاســـتفهامِ، مع اختلافِ الأداةِ، لبيانِ عظيمِ انكارِهِ، وتذمرِهِ، وسخطِهِ مما لقيهُ ويلاقيه من محنٍ، عجزَ عن ردِّها، فشيبته وأهلكته؛ لكثرتِها وقسوتِها، فازدادَ تعجبهُ من دهرِهِ الذي لا يقصرُ بالتعنيت، وإيذاء النَّفسِ.

إنَّ لومَ الدَّهرِ جاءَ عندَ شـــعراءِ الطَّوائف والمرابطينَ بطرائقَ مختلفةٍ، إلا أنَّ النتائجَ جاءتْ متفقةً، تكشـــفُ عن التَّذمرِ الواضـــحِ من ضُـــوربِ الزَّمانِ المؤلمةِ، والعذلِ الصـريحِ أو الخفي له، والشَّـكوى من آثارِهِ، لشـدَّةِ ظلمهِ للإنسـانِ من دونِ اسـتثناءٍ، وبطشهِ به، وإحداثهِ الضررِ النَّفسيّ الكبيرِ له، الذي يجبرُ صاحبه على الانزواءِ عن واجهةِ الحياةِ، ومن هذا قول الأعمى التُّطيلي [٢٢]:

وا أسَـــفي مِـن زَمَـنٍ بَـاخِـلٍ	يُـمِّـرُ لـلـمـرءِ ولا يُـحـلـي
مـا زالَ مُـذ مَـا صَـــفَرَتْ كَفُّـهُ	يَطوي لـك كَشَـــحًـا على غِـلِّ
ويَـا لَـذَرْعي ضَـــاقَ عن هِمَّـةٍ	مُـعْـلَـمَـةٍ فـي زَمَـن غُـفْـل
حســـبي بـهـا عُلْيـا علـي عُـلاً	فـلـم يَـزَلْ يُـعْـلـي وَيَسْـــتَـعْـلـي
من أرْيَحِيٍّ [٢٣] بين بيضِ الظُّبَـا	يـومَ الـوغـى والسُّـــمُـرِ الـذُّبَـل
مُـبـتَسِـــمٌ حـيـثُ الـمـنـايـا بـه	تكْشِـــرُ عن أنْيـابِهـا العُصْـــل

فقد لامَ الشَّـــاعرُ التُّطيلي الدَّهرَ، وندبَ ما نزلَ به وبغيرِهِ من مصـــائبَ ورزايا مُرَّةٍ، انزلها عليهم الزمانُ الباخلُ، مظهرًا التفَجُّع، والتَّوجُّع، والحسـرة، باسـتعمالهِ أداة النداء (وا)، الخاصـة بالنُّدبةِ، التي تؤثرُ بالمتلقي بشكلٍ كبيرٍ، وتشـهدهُ للإصـغاء، كيف لا وهذا الزَّمانُ يُمِّرُ للإنسـانِ ولا يُحلي، ويلبسـهُ ثوبَ الهمِ والشَّـقاءِ باسـتمرارٍ، وكأنَّ هذا الزَّمان إنســـانٌ ظالمٌ متجبرٌ، يتربصُ بالمرءِ ليفتك بهِ في كلِّ وقتٍ وحينٍ، من دونِ ترددٍ، مستعيرًا له الكفّ، الذي يضربُ به على الكفِّ الآخر، ليُحدثَ صوتًا واضـحًا، مُنذِرًا، بضَّـمِ الحادثاتِ واضـمارِها، والتي سـتصـيبُ الشَّـاعرَ بلحظةٍ ما، بحقدٍ وحسـدٍ وغلٍّ، وهو تعبيرٌ مجازيٌّ مدهشٌ، اســـتطاعَ التُّطيلي من خلالهِ إظهار المرارةِ التي تعلتي صـــدرهُ، وتبطشُ به، لشـــدَّةِ نَوازِلِ الدُّنْيا المفاجئة، التي تكون ذا وقعٍ أقوى من ســـابقِه، وذا أثرٍ لم يســـتطعْ احتمالَه، وما يزالُ الدَّهرُ يُعلي وَيَسْـــتَعْلي بحادثاتهِ على الشَّـاعرِ، على الرغمِ من أنَّه واسـعُ الخُلُقي إلا إنَّه مع الزَّمنِ كما الذي في معركةٍ بين

السيوفِ اللامعةِ القاطعةِ، والرماحِ الحادةِ، وهو مبتسمٌ ابتسامةَ المستغربِ العاجزِ، أمامَ المنايا، التي تكشرُ عن أنيابِها الصلبةِ المعوجةِ باستمرارٍ، ومن دون رويةٍ .

لقد استطاعَ الشَّاعرُ أن يصورَ بطريقةٍ حاذقةٍ مرارةَ الحياةِ التي يعيشُها، بتوظيفهِ لثنائيةِ (المرارة والحلاوة)، فضلًا عن عزفهِ على وتري الاستعارة والمجازِ لينقلَ الصورةَ للمتلقي كاملةً واضحةً مؤثرةً، ويعكسَ من خلالِها حجمَ تذمرهِ من الدَّهرِ الظَّالمِ، ويُفصحَ عمَّا تجيشُ به نفسهُ من ألمٍ حاضرٍ، ومرارةٍ مطبقةٍ، وخوفٍ راكزٍ يقيدُ الشَّاعرَ من شدَّةِ تراكمِ صُرُوف الزَّمانِ عليه، وما هذا كلّه إلا انعكاسا لاضطرابِ النَّفسِ، وتذمرها مما يحيط بها، الأمر الذي حملها على اللَّومِ بـ (وا أسَفي مِن زَمَنٍ بَاخِلٍ). ((وليس غريبًا أنْ يكونَ من آثارِ الحضارةِ البشريةِ تزايدَ آلامِ الفردِ والجماعةِ، فإنَّه لمن الواضحِ أنْ تَعقُّدَ أسبابِ الحياةِ لا بُدَّ أنْ يُفْضِيَ إلى تنوعِ آلامِ الإنسان . ولعل هذا ما عناه ماكس شلر حينما قال : إن المدنيةَ تزيدُ من عمقِ الآلامِ البشريةِ))[٢٤]، ولذلكَ نجدُ أنَّ أدباءَ الأندلسِ وشعراءَها في عصرِ الطوائف والعصورِ التي جاءت بعده كانُوا دائمي اللَّوم لزمانِهم، والشكوى من ضروبهِ؛ لأنَّ الأديبَ حساسٌ ومزاجيٌّ وذاتيٌّ، يرى الوجودَ بمنظارِ روحهِ المرهفةِ، فلكما صادفهُ ما لا يلائمهُ شخصيًّا، عَمَّمَ على الدَّهرِ إحساسَهُ [٢٥]؛ لأنَّه يرى أنَّ الزَّمانَ لا شغلَ يشغلهُ غير السعي للإساءةِ إليه، والتَّربص به، وهو ظالمٌ قويٌّ يفتكُ بالجميعِ، ولا يُمكنُ لأحدٍ أنْ يجابهَ أحداثَهُ بغيرِ البكاءِ والعويلِ، ودليل ذلكُ قول ابن خفاجة الأندلسي من قصيدةٍ يرثي بها إخوانه، ويلومُ الليالي لما لقيهُ منها من خطوبٍ [٢٦] :

وَهـا أَنـا تَلقـاني اللَيـالي بِمِلئِهـا ... خُطوبـاً وَأَلقى بِـالعَويـلِ اللَيـالِيـا

وَتَطوي عَلى وَخزِ الأَشـافي جَوانِحي ... تَوالي رَزايـا لا تَرى الـدَمعَ شـافِيا

ضَـمانٌ عَلَيها أَن تَرى القَلبَ خافِقاً ... طِوالَ اللَيـالي أَو تَرى الطَرفَ دامِيـا

وَكَم قَـد لَحَتني العـاذِلاتُ جَهـالَـةً ... وَيَـأبى المُعَنّى أَن يُطيعَ اللَواحِيـا

فالحزنُ يخيمُ على النَّصّ، بأجراسِ العذلِ المتكررةِ، وغزارةِ الدموعِ النازلةِ، وأصواتِ العويلِ العاليةِ، وأنَّاتِ الصَّدرِ المتوجعةِ، وآهات اللَوعاتِ المتزايدةِ، التي أطلقها الشَّاعرُ، والتي جاءت نتيجةً حتميةً للألمِ النفسيّ المطبق، التي يعانيه من شدَّةِ ظلمِ الدَّهرِ له، وعجزهِ عن مواجهةِ خطوبهِ الفتاكةِ. ويحذرُ الأعمى التُّطيلي المتلقي من

الركونِ إلى الزَّمانِ، والثِّقةِ بضُـرُوبِهِ؛ لأنَّها متقلبةٌ ظالمةٌ، لا يفلتُ من بطشِـها أحدٌ، وذلكَ في قولهِ (٢٧):

لا تَركننَّ إلى الزَّمَـانِ وَصَـــرْفِـهِ فَـتَـكَ الـزَّمَـانُ بـآمـنٍ وَمَـرُوعِ
دهرٌ كـأنَّ صُـــرُوفَـهُ قـد جُمَعَـتْ مِن نَثرِ مُنتَظِمٍ وَشـــتِّ جميعِ
وإذا عَجِبـتَ مِن الزَّمَـانِ بِحَـادثٍ فـلـتَـابـعٍ يَـبْـكـي عـلـى مَـتـبـوعِ

إنَّ اللَّومَ بهذا النَّصّ يكمنُ في الرسالةِ السوداءِ التي أرادَ الشَّاعرُ إيصالها إلى المتلقي، المتمثلةُ بنهيهِ عن الاطمئنانِ والاسـتسـلامِ للزَّمانِ، وتنبيههِ من شـموليةِ فتكهِ وغدرهِ بالجميعِ، من دونِ استثناءٍ، سواءً أكان آمنًا أو مروعًا. ويتضـحُ أنَّ خلفَ ذلكَ تجربةً مريرةً للتطيلي مع الدَّهرِ، أضاقتْ نفسَهُ الوَجَع، وجعلتْ قلبه يقطرُ دَمًا، وهو ما يؤكدهُ تكرار كلمةِ الزَّمانِ، التي توحي بحديثِ النَّفسِ، وجولان الفكرِ برأسهِ .

ثانيًا : لومُ الدَّهرِ لسلبِ الشبابِ وإلباسِ الشيخوخةِ:

تعدُّ الشَّـــيخوخةُ من ((أكثرِ العلاماتِ التي يتركُها الزَّمانُ على الجســمِ الحيّ جلاءً وحتميَّةً))(٢٨)، وهي تؤثرُ كثيرًا على حالةِ صـاحبِها، ولا يخفى امْتِعَاضُ الإنسـانِ من وضـعِه الجديدِ الذي أصـبحَ عليه جسدُه؛ ((إذ تمارسُ الهيكليَّةُ البشـريةُ تأثيرًا واضـحًا في الحالةِ النَّفسـيةِ لصـاحبِها))(٢٩). ويعدُّ الشَّـيبَ من علاماتِ الشـيخوخةِ الطاغيةِ، ودنو الأجلِ، الذي يُلبسُ الحزنَ إلى أبعدِ الحدودِ، حزنٌ لا يفارقُ صاحبه، لذا فـــ ((حضورُ الشَّيبِ بوصفِه محمولًا من محمولاتِ الموتِ، ونذيرًا خطيرًا يهددُ حياةَ الشَّاعرِ يترتبُ عليه غيابٌ فاعلٌ لعالمِ الحضـــورِ، عالمِ الفعلِ واللَّذة))(٣٠)، وهو ما يوكِّدُ قولَ الدكتور مؤيد اليوزبكي بأنَّ ((الجَســـدَ هو الحياةُ والوجودُ، في حيويتِهِ إقبالُ الحياةِ والوجودِ، وفي ضمورِهِ إدبارُهما))(٣١). وكلُّ ذلكَ مرهونٌ بقدرةِ الزَّمانِ، الذي يجرفُ في تيَّارِهِ كلَّ شـيءٍ، الصـحةَ، والشـبابَ، والآمالَ، والحياةَ كلَّها(٣٢)، عليه فإنَّ ((إحساسُـنا بالزَّمنِ يرتبطُ بإحسـاسـنا بالفناءِ))(٣٣)، الذي قد يكونُ قريبًا إلى حدٍّ كبيرٍ، مما يجعلُ الخوفَ يتفشَّـــى بداخلِ المرءِ، ويملكُ عليه نفسَـــه، ذلك الخوفَ الذي يُفزِعُه، ويُقلقُه، ويُغيّرُه عن هيأتِه وطبيعتهِ(٣٤). لذلكَ عدَّ الشَّـــاعرُ التُّطيلي موتَ الشـــبابِ، وارتدائه

لباس المرضِ والهرمِ مصيبةً مؤلمةً، تعارضُ رغبتهُ بديمومةِ شبابهِ وقوتهِ، وتصدمها بواقعٍ مأساوي يحكمُه قانون الحياةِ المحزن، وذلكَ بقولهِ(٣٥):

مُصيبي على موتِ الشَّباب بلحظةٍ ... وأيَّامَ كانتْ قَبْلَه تَنْصُلُ الإلُّ(٣٦)

أأُحْسَدُ والدنيا تَضنُّ بِدرِّها ... عليّ وكانتْ كلُّ أخلاقها نُغْلُ

وأنضو على حكمِ الزَّمانِ وصرفهِ ... شبابي، ولا يُلْقي شبيبته الحِسْلُ(٣٧)

قَضَاءٌ من الأيامِ فَصْلٌ نَقَمْتُهُ ... عليها فلا كفَّني أنّهُ فصلُ

رأى الشَّاعرُ أنَّ انقضاءَ الشَّبابِ والعنفوانِ بلحظةٍ ما، وانتشارَ العجزِ والضعفِ بالجَّسدِ رزيةٌ حلَّت عليه وآلمته، بعد أن كانَت أيامه تنزعُ عنه حوادثَ الزَّمنِ وحرابه، مقارنًا بينَ ما كانَ وما هو عليه الآن، ويخبرُ حاسديه بأنَّ الدُنيا بخلتْ بحقهِ، وأدبرتْ عنه بلحظةٍ، بعد أن كانتْ مقبلةً عليه بأخلاقِها الفاسدةِ الخادعةِ؛ لأنَّها خلعتْ عنه ثوبَ الشَّبابِ، وبلا عودة له، على خلافِ الضَّبِّ، الذي لا يطرأُ على شبابهِ تأثيرُ الدَّهرِ، وهذا القضاءُ الحاسمُ من الدُّنيا، جعلهُ ناقمًا عليها، مبالغًا في لومِها، ناكرًا منها ذلكَ، مكررًا في البيتِ الرابعِ مفردةَ الفصلِ التي تعني الحسمَ؛ ليؤكدَ أنَّ هذا القضاءَ لا هوربَ منه، وهو تكرارٌ يدلُّ بوضوحٍ على الاضطرابِ النَّفسي الذي يعاني منه التُّطيلي. وقد استعارَ الحربةَ لمنايا الأيامِ، والأخلاقَ لأوقاتِ الدنيا، لإضافةِ التجديدِ الفنيّ، الذي يلفتُ الأنظارَ، ويأخذها إلى عوالمَ نفسيةٍ، ودلالاتٍ جديدةٍ، فالاستعارةُ من أكثرِ الأنماطِ البلاغيةِ تقبُّلًا للتجديدِ المتواصلِ، عبرَ الربطِ بينَ مختلفِ الأشياءِ، والاستعمالُ الاستعاريُّ واسعُ النفوذِ؛ فهو يمتدُ من موجوداتِ الطبيعةِ إلى الكائناتِ الوهميةِ(٣٨). ومن الشُّعراء الذين لاموا الدَّهرَ كذلكَ لتجريدهِ لهم قميص الشبابِ، وإلباسهِ إياهم ثوب الهرمِ ابن خفاجة بقولهِ (٣٩):

فيمَ التَجَمُّلُ في زَمانٍ بَزَّني ... ثَوبَ الشَبابِ وَحيلَةَ النُبَلاءِ

فَعَريتُ إِلّا مِن قِناعِ كَآبَةٍ ... وَعَطِلتُ إِلّا مِن حُلِيِّ بُكاءِ

فَإِذا مَرَرتُ بِمَعهَدٍ لِشَبيبَةٍ ... أَو رَسمِ دارٍ لِلصَديقِ خَلاءِ

جالَت بِطَرفي لِلصَبابَةِ عَبرَةٌ ... كَالغَيمِ رَقَّ فَحالَ دونَ سَماءِ

فهو بنفسهِ الحزينةِ المحطمةِ يدعو إلى تركِ التَّجمُّلِ والتَّزينِ، بعدَ أن خلعَ عنه الزَّمانُ الظالمُ رداءَ الشَّبابِ، وألبسهُ ثوبَ الكُهولَةِ، الأمر الذي أحزنهُ وآلامهُ لدرجةٍ كبيرةٍ، عرَّتْهُ من كلِّ شيءٍ إلا من قناعِ الكآبةِ، وأجبرتهُ على إهمالِ جميعِ الآمالِ والرغباتِ، وانصرافهُ نحو البكاءِ والنحيبِ، ولا سيّما عندما يمرُّ بمكانٍ ما، له فيه من ذكرياتِ الشَّبابِ الجميلةِ، فسرعان ما تنهمرُ دموعه تأسفًا وأسًا، وتحولُ دونَ مناه، كما تحولُ الغيمةُ دونَ السماءِ. إنَّ اليأسَ جليٌّ في هذا النَّصِّ، والاضطرابَ النَّفسي شاخصٌ فيه، وسبب ذلكَ الزَّمان الذي لم يبقِ على نضارةِ الشَّاعرِ، مما حملَه على لومهِ، والشَّكوى من أفعالهِ.

ويستمرُ ابنُ خفاجةَ بلومه للدَّهرِ؛ لأنَّه طوى شبيبته، وصرفَ محاسنَ وجهه، بكثرةِ مصائبهِ، وفتكَ بها، قائلًا بنصٍّ جديدٍ يفيضُ بالعذلِ والحزنِ وعدمِ الرضا (٤٠) :

أَلا إِنَّ دَهراً قَد تَقاضى شَبيبَتي ... وَصَحبي لَدَهرٌ قَد تَقاضى المَرازِيا

زَمانٌ تَوَلّى بِالمَحاسِنِ عاطِرٌ ... تَكادُ لَياليهِ تَسيلُ غَوالِيا

تَقَضّى وَأَلقى بَينَ جَنبَيَّ لَوعَةً ... أُباكي بِها أُخرى اللَيالي البَواكِيا

كَأَنّي لَم أَنسَ إِلى اللَهوِ لَيلَةً ... وَلَم أَتَصَفَّحْ صَفحَةَ الدَّهرِ راضِيا

إذ لم يتركْ الزَّمنُ للشَّاعرِ إلا حُرقةَ القلبِ، وألَمَ النَّفسِ، والبكاءَ من دون هوادةٍ، بعد أن فتكَ بشبابهِ، وصحتهِ، وجعلهُ عاجزًا ضعيفًا منكسرًا، مما حمله على لومهِ بمشاعرَ متشائمةٍ؛ تنبعُ من صفحةِ الدَّهرِ السوداءِ، وقد ركَّبَ من استعارتينِ ماديتينِ في الشَّطرِ الأخيرِ تصويرًا مؤثرًا، إذ استعارَ التَّصفحَ للتَّذكُّرِ والمراجعةِ، والصَّفحةَ لماضي الدَّهرِ؛ لجعلِ الصورةِ ممتدَّةٍ إلى الداخلِ النَّفسي .

ثالثًا : لومُ الدَّهرِ لعدمِ منحِه المكانةِ التي يستحقها الشَّاعر

انمازَ معظمُ الشُّعراءِ في العصورِ القديمةِ بإحساسهم المرهفِ، وخيالهم البعيد، وشعورهم بالمكانةِ العاليةِ التي منحها لهم نتاجهم الشِّعريّ، فضلًا عن سرعةِ ضجرهم وتذمرهم عندما يكونون بموقفٍ يرونه لا يليق بهم، وسلاحهم في جميعِ اللَّحظاتِ لسانهم، الذي تحكمُهُ التَّطلعات والظروف، الأمر الذي أسهمَ بطريقةٍ مباشرةٍ في تنوعِ

أغراضِهم، ومعانيهم، وصورِهم، التي تحتاجُ إلى قراءةٍ جادةٍ، وتأملٍ عميقٍ، للوصولِ إلى غاياتِهم، وكشفِ دلالاتِها، الواقعةِ بينَ المعنى الظاهرِ والمعنى الخفيّ الكامنِ في أعماقِ القصيدةِ، وفضاءاتِها البعيدةِ (٤١)، فضلًا عن الكشفِ عن الأجواءِ النفسيَّةِ المحيطةِ بكلِّ هذا. وقد تتشابكُ في النتاجِ خيوطُ الألمِ والأملِ، وليسَ من البشرِ أحدٌ لم تمتزجْ في حياتِه خيوطُ الألمِ والأملِ(٤٢). إنَّ لومَ الشَّاعرِ للدَّهرِ قد اختلفت أسبابه ومقوماته، وكان من بين ذلكَ هو عذله له لأنَّه نالَ منه بسببِ آدابِهِ وأشعارِهِ، وهذا ما نجدهُ في قولِ ابن حربون(٤٣):

ما لِلزَّمانِ أَلا حُرٌّ يُنَهنِهُهُ ... يَفرِي أَديمي بِأَنيابٍ وَأَظفارِ

نَشَدتُهُ حَقَّ آدابي فَأَشعَرَني ... بِأَنَّ ذَنبِيَ آدابي وَأَشعارِي

تَكَنَّفَتنِيَ مِنها كُلُّ مُظلِمَةٍ ... كَمَنتُ فيها كُمونَ الخَمرِ في القارِ

أَتُسلِمُونَ لِجَورِ الدَّهرِ جارَكُمُ ... وَلَم تَضِع قَطُّ فيكُم ذِمَّةُ الجارِ

فقد سألَ الشَّاعرُ متعجبًا عن الزَّمانِ الظالمِ، وهل هناك من يستطيعُ أن يردعَهُ عن الفتكِ في النَّاسِ بأنيابهِ الممزقةِ، وأظافرِهِ الطويلةِ، مستعيرًا الأنياب والأظافر له، لتقريبِ الصورةِ، وكشفِ ملامحها، قاصدًا من هذا تشبيهه بالحيوانِ المفترسِ، الذي يفتكُ بالضَّحيةِ، بلحظةٍ، ومن دونِ رحمةٍ، ولا تمييزٍ، ثم يبينُ سببَ لومهِ له بأنَّه أرادَ منه أن يمنحه ما يريد إكرامًا لآدابهِ وأشعارِهِ، التي انمازَ بها عن غيرِهِ، فعمدَ إلى البطشِ بهِ، وكَمنهِ في أسفلِ الظلماتِ ككُمونِ الخمرةِ في القارِ بدلًا من أن يجلَّهُ ويوقرَهُ. إنَّ مصائبَ الدَّهرِ التي أحاطتْ بابن حربون أنزلتْ به الألمَ النَّفسيَّ، الذي لا يُحتملُ، وجعلته عاجزًا أمامَها، لا يقوى على شيءٍ، غير السؤالِ عمن ينهنهُ هذا الكائن الشرس، مُتَمَنّيًا ذلكَ، عسى أن يأخذَ الثأرَ له منه. ومن النُّصوصِ التي تغصُّ بالمشاعرِ السَّلبيةِ، والتَّعجبِ من شدَّةِ ظلمِ الدَّهرِ له وعندهُ من الآدابِ الشَّيء الكثير قول ابن الزَّقاقِ البلنسي(٤٤):

يا لائميَّ غداةَ البينِ لومُكما ... لنارِ قلبي على شَحطِ النوى حَصَبُ

إنَّ الليالي والأيامَ أجدر بالـ ... تأنيبِ(٤٥) ممَّن أطالت ظُلمَهُ النُّوَبُ

أشكو من الدهرِ أنياباً مُذَرَّبَةً ... وبين فكيَّ هذا المِقْوَلُ(٤٦) الذَّرِب(٤٧)

تَـغُـضُّ مـنِّـيَ آدابـي فـوا عـجـبـاً لروضـــةٍ غَضَّ منها النَّوْرُ والعُشُـــبُ

فالشَّـاعرُ يحثُّ لائميّه لفراقهما بعدَ وصـله بهما، على تأنيبِ الدَّهرِ وتوبيخِهِ؛ لظلمِ له بنائباتهِ النازلةِ عليه، ويقولُ لهما أنَّ عذلكما لي كما الذي يرمي الحطبَ على نارِ قلبي الْمُوقَدَةِ باستمرارٍ، بسبب بعدي عنكما ليزيدَ اشتعالَها أكثر وأكثر، ثم يشكو ما فعله الدَّهر به، الذي افترسهُ بأنيابهِ القاسيةِ الفتاكةِ؛ لامتلاكهِ لسانًا حادًّا مؤثرًا بنظمهِ، حتى أصـبحت آدابه تغُضُّ منه من قسـوةِ الفتكِ به، متعجبًا من ذلكَ، متسـائلًا كيف لحديقةٍ جميلةٍ يخلو منها النَّوْرُ والعُشُـبُ. وهذا يفصـحُ عن الحالةِ النَّفسـيةِ المُهشـمةِ للشَّـــاعرِ؛ بســـبب ما لقيه ويُلاقيهِ من هولٍ، وقد اســـتعارَ الأنيابَ للمنايا؛ ولأنَّ ((الوصـولَ إلى صـورٍ استعاريةٍ جديدةٍ تفرضُـها سـياقاتُ الحالِ تكشـفُ بطبيعتِها عن معانٍ جديدةٍ، تُثري المعنى وتفتحُ آفاقَه الدلاليةَ لإنجازِ البنيةِ الشِّـعريةِ الكاملةِ والقادرةِ على إدهاشِ المتلقي))[٤٨].

رابعًا : لومُ الدَّهرِ لفقدِ الأحبَّةِ، وتشتتِ تشملِهم

إنَّ الإنســانَ مهما ادَّعى القوةَ، وعلى الرغمِ من مكانتِه الواضــحةِ في الكونِ، والحيز الذي يشـغلُهُ منه، فهو ضـعيفُ الطاقةِ، محدودُ القدراتِ[٤٩]، وباسـتطاعةِ مخلوقاتٍ صـغيرةٍ لا ترى، أو أشياءَ لا يُحسبُ لها أنْ تعجزهُ، وتُسبّبَ الوجعَ الجَّسديَّ، أو الألمَ النَّفسـيَّ له، الذي لا يقدرُ عن ابعادهِ عنه، ودفعِه إياه؛ لعجزِه، وهذا ما أكدهُ الله تبارك وتعالى بقولهِ: {وَخُلِقَ الْإِنْسَـانُ ضَـعِيفًا }[٥٠]. وعندَ ذلكَ يعمدُ في كثيرٍ من الأحيانِ إلى صـبِّ وهنهِ في لومِ الدَّهرِ، والشـكوى من آثارِ تقلباتهِ المعهودةِ، التي تنزلُ الألمَ عليه. ((والواقعُ أنَّ من شأنِ (الألم) في كثيرٍ من الأحيانِ أنْ يُولدَ تناقُضًا خصبًا يُزيدُ من عمقِ حياتنا الباطنيةِ، إذ تشـــعرُ الذَّاتُ بتوتُّرٍ حادٍّ بينَ ما هي عليهِ، وما تريد الوصـــولَ إليهِ، أو بينَ ما هو كائنٌ وما ينبغي أنْ يكونَ، ومثل هذا التوتُّرِ هو ... شـــعورٌ بالقيمةِ. وليس معنى هذا أنَّ (الألمَ) في حدِّ ذاتِه (خيرٌ)، وإنما معناهُ أنَّ (الألمَ) قد يعودُ بالخيرِ على الذَّاتِ))[٥١]. ومن صـــريحِ العذلِ للدَّهرِ؛ لأخذهِ الأحبَّةِ والأصحابِ ما قاله ابن خفاجةَ الأندلسي من قصيدةٍ تنضحُ بالوجعِ النفسيّ، والضعفِ البدني، فقد اســـتطاعَ من خلالِها أن يكشـــفَ لنا عن عوالمهِ الدَّاخليةِ المحطمةِ،

ومعاناته مع ابتلاءات الزَّمانِ، واستسلامه لها، مكتفيًا بصبِّ اللَّومِ عليها، والشكوى من آثارها قائلًا فيها (٥٢):

أَلا وظَعَنًا مِن صاحِبٍ وَشَبيبَةٍ ... فَهَل لَهُما مِن ظاعِنينَ إِيابُ
دَعا بِهِما صَرفُ اللَيالي إِلى البِلى ... فَكُلُّ الَّذي فَوقَ التُرابِ تُرابُ
فَها أَنا أَبكي كُلَّ مَعهَدِ راحَةٍ ... تَضاحَكَ أَحبابٌ بِهِ وَصِحابُ
أُقَلِّبُ طَرفي لا أَرى غَيرَ لَيلَةٍ ... وَقَد حُطَّ عَن وَجهِ الصَباحِ نِقابُ
كَأَنّي وَقَد طارَ الصَباحُ حَمامَةٌ ... يَمُدُّ جَناحَيهِ عَلَيَّ غُرابُ
وَقَد جاشَ بَحرٌ بَينَ جَنبَيَّ مائِجٌ ... لَهُ زَخرَةٌ في وَجنَتَيَّ وَعُبابُ
فَيا لَهُم مِن رَكبِ صَحبٍ تَتابَعوا ... فُرادى وَهُم مُلدُ الغُصونِ شَبابُ
فَها هُم وَسِلمُ الدَهرِ حَربٌ كَأَنَّما ... جَثا بَينَهُم طَعنٌ لَهُم وَضِرابُ
فَحَتّى مَتى تَبري اللَيالي سِهامَها ... وَحَتّى مَتى أُرمى بِها فَأُصابُ
وَحَتّى مَتى أَلقى الرَزايا مُمِضَّةً ... كَما كَرَعَت بَينَ الضُلوعِ حِرابُ

بدأ الشَّاعرُ نصَّهُ بتسليطِ الضوءِ على أصحابهِ وأحبَّتِهِ الذين ظعنوا، متسائلًا بصيغة العارفِ هل لهما من إيابٍ بعدَ سفرهم هذا؟ ثم يفصحُ عن جوابٍ لسؤالهِ بأنَّ صُرُوف الليالي هي التي أخذتهم إلى الدَّارِ الآخرةِ، مؤكدًا بأنَّ كلَّ من بقي على سطحِ الأرضِ سيلقى المصيرَ المحتومَ، وهو الموت والفناءُ، الأمرُ الذي جعلَ الشَّاعرَ يبكي عليهم في كلِّ مكانٍ لهم به ذكريات أو ضحكات معه، والبكاءُ هذا دليلٌ على الانكسارِ النَّفسيِّ الذي يعانيه، وكأنَّ بسفرهم هذا قد خيمَ الليلُ بجناحيهِ على دنيا الشَّاعرِ، وأنزل نقابهُ على وجهِ الصباحِ، وأصبحَ لا يرى إلا السواد، مستعيرًا بإبداعٍ وتفننٍ النقاب لظلامِ الليلِ، مستمرًا بركوبِ أمواجِ الاستعارةِ العاليةِ المتلاطمةِ؛ لأنَّها ((نوعٌ من التغييرِ الدلاليِّ القائمِ على المشابهةِ، وهي من أبرزِ مظاهرِ النشاطِ الشعريِّ الذي يُخرجُ المعنى من الواقعِ ليبلغَ درجةَ الخلقِ الفنيِّ، وتفجيرِ الطاقاتِ الكامنةِ في علاقاتِ اللُّغةِ، ومن ثمَّ بثُ الحياةِ في أوصالِها لتحقيقِ نوعٍ من الانسجامِ والتآلفِ اللذين يسهمانِ في تكوينِ الجماليةِ والقيمةِ المنشودةِ من الصورةِ الشعرية))(٥٣)، ليرسمَ لوحةً أخرى ضاربةً في وجدانِ المتلقي، إذ استعار الحمامةَ وطيرانها بعيدًا للصباحِ،

والغرابَ وجناحيهِ للمنايا، قاصدًا بذلكَ أنَّه لم يبقَ من رفاقِ الدربِ غيره، فطاردتهُ منايا الدَّهرِ، كما طاردَ الغرابُ الحمامةَ الوديعةَ، ليفتكَ بها، بمعنى آخرَ أنَّه أرادَ القولَ بأنَّ الموتَ قد غيبهم، وجاءَ يلاحقه؛ لأنَّه هو من بقي منهم، وتلك سنة اللهِ تعالى على أرضِه، المتمثلةِ بعدم بقاء حيٍّ عليها، لتجهشَ نفسه مرَّة أخرى بالبكاء الزَّاخرِ بالدمعِ، الذي يَشبهُ أمواجَ البحرِ، والذي يعكسُ حجمَ الانهزامِ النفسيّ عندَ الشَّاعرَ، لرحيلِ أصحابِهِ الشَّبابِ عنه، وبقائهِ وحيدًا مع ذكراهم، الذين شبههم بالغصنِ اللينِ الطري كنايةً عن شبابِهم الفاني، بحربهم مع الدَّهرِ، الذي استوْفَز عليهم جالسًا ليطعنَ بهم، ويسلبَ أرواحَهم، وهي كناية أخرى عن سرعةِ الموتِ للأصحابِ، ليتساءلَ الشَّاعرُ قاصدًا اللَّومَ، مستعيرًا السهام للمنايا، إلى متى توجهُ الليالي سهامَها القاتلةَ إلي ؟ وإلى متى أُرمى بها فأُصابُ إصابةً مباشرةً؟ وإلى متى ألقى المصائبَ والمحنَ المُوجعةَ؟ التي تشبهُ الحِرابَ الحادةَ، فكما أوجعتْ هذهِ الحِراب الأجسادَ فقد آلمتْ رزايا الدَّهرِ أفكارَ الشَّاعرِ وقلبَه، وكسرتْ نَّفسَه وحطمتها، وأفقدتْها الأملَ بالحياةِ، وأقعدتْها حبيسةً في زوايا مظلمةٍ، متجهة إلى العذلِ والبكاءِ والعويلِ بوصفِها المتنفسَ الوحيدَ لها، معترفة بالعجزِ والضعفِ أمامَ ضُرُوب الزَّمانِ.

إنَّ مواجهةَ الإنسانِ للموتِ أمرٌ في غايةِ الصعوبةِ؛ فـ((منذ أن تبينَ للإنسانِ أنَّ الموتَ هو المواجهةُ الأخيرةُ مع المجهولِ لم يكنْ مفاجئًا له المعاناةُ الدائمةُ من الخوفِ، والتَّوتُّرِ تجاهَ هذا المجهولِ))(٥٤)، ولا سيّما أنَّ ردودَ فعلِ المرءِ النَّفسيةِ عند لحظاتِ الموتِ لا تكادُ تتفاوتُ من إنسانٍ لآخرَ؛ فلحظةُ الموتِ تُثيرُ الشُّؤمَ، والفزعَ بهروبِ النَّفسِ من الجَّسدِ المحتضرِ(٥٥). إنَّ العيشَ قد يصبحُ بعدَ فقدِ الأحبَّةِ عذابًا، وعقابًا، وعبرةً، فضلًا عن الهلعِ الذي يتملكُ النَّفسَ، ويشحنُها بمشاعرَ سالبةٍ، ويتلخصُ ذلك في قولِ أبي بكر محمد بن سوار الأشبوني(٥٦):

العَيشُ بَعدكَ يا عليُّ نَكَالٌ ... لا شيءَ منهُ سوى العناء يُنَالُ

يا عَثرةً عَثرَ الزَّمَانُ بِأَهلِهِ ... ليتَ الزَّمانُ مِنَ الزَّمَانِ يُقَالُ

فهو يقرُّ بأنَّ العيشَ بعدَ عليٍّ نَكالٌ وخوفُ، وأنَّ كلَّ ما نالَهُ ويُنَالُ من الدنيا هو العناءُ فقط، ويؤكدُ بعدمِ وجودِ من يَسلَمُ من عثراتِها وابتلاءاتِها، حتى الدَّهر ذاته، وإن تمنى له أن ينجو من نفسهِ، إلا أنَّ التمني هنا لا يلامسُ الواقعَ بشيءٍ. وتكرارُ

الشَّـــاعر لمفردةِ الزَّمانِ ثلاث مراتٍ يدلُّ على شـــدَّةِ ســـخطهِ عليه، وعظيمِ لومهِ له، وكبيرِ تحسُّرِهِ على فراقِ من رحلَ من أحبائهِ، وكثرةِ الألمِ النَّفسيّ الذي أصابهُ . ومن الشُّعراءِ الذينَ دونوا في سجلِ لومِ الدَّهرِ لفقدِهم الأحبَّةِ ابن عبدون بقوله [٥٧]:

مَلَكتَ فَأســـجح لا أبا لكَ[٥٨] يا دَهرُ أَفي كُـلِّ عَـامٍ في العلا فَتكَـةٌ بِكرُ

رَثَتـهُ فَقُلنـا إِنَّهـا لَتُمـاضِـــر وَإِنَّ اِبنَ خَلـدونٍ لَمَفقودُهـا صَـــخرُ

استطاعَ الشَّاعرُ هنا أن يصورَ مشهدًا حواريا مؤثرًا بين ضعيفٍ منكسرٍ وقوي وفتاكٍ، فيُقِرُّ له بهذا الحوار بقوتهِ وبطشهِ، ويرجو منه التَّكرمَ بالعفوِ والصَّفحِ، وينتقلُ مباشرةً إلى عذلهِ بجملةٍ لم تتركْ من الشتيمةِ شيئًا إلا حوتها، بقولهِ له: (لا أبا لكَ يا دَهرُ)؛ لأنَّه رفضَ رجاءَهُ، ويسألهُ يائسًا بالهمزةِ أ في كلِّ عامٍ فتكةٌ جديدةٌ ؟ وذلكَ لأنَّه غيبَ عزيزهُ ابن خلدون، كما سلبَ أرواحَ أحبَّةٍ غيره فيما مضى. وقد جعلَ من هذا النَّصِّ مرآةً تعكسُ أعماقَ النَّفسِ المتألمةِ المهشَّمةِ، من غيرِ لبسٍ يُذكرُ .

إنَّ رؤيةَ الحَيِّ للميتِ تظلُّ صـــعبةً على الإنســـانِ، فعلى ((الرغمِ من أن شـــعراءَ الأندلسِ آمنوا بالموتِ قدرًا محتَّمًا ينزلُه اللهُ تعالى على الإنســـانِ، إلا أنَّ الحزنَ ظلَّ قاسـمَهم المشـتركَ لما يحسـونَه إزاءَ الحدثِ المؤلِم. وهذا ما جعلَ تقاربًا في أفكارِهم، وتشـــابهَ حديثُهم عنه. وهذا مردُّه إلى طبيعةِ النفسِ الإنســـانيَّةِ في مثلِ هذهِ الأحداثِ المتقاربةِ، فالموتُ واقعٌ على الجميعِ، لذا كانَ الشعورُ والإحساسُ به متشابهًا ومتطابقًا عندهم))[٥٩].

إنَّ اللَّومَ والبكاءَ والشكوى على ما يبدو هي وسائلُ الشَّاعر الوحيدةُ، التي يمكن له أن يطرقَ بابها عندما تصيبه رزايا الدَّهرِ المؤلمةِ، وهذا إن دلَّ على شيءٍ إنما يدلُّ على ضـعفِ الإنســانِ، كما اسـلفنا سـابقًا، فقد وجدنا ذلك طاغيًا في معظمِ النُّصـوصِ الشِّعريةِ، كما هو الحالُ مع ابن الزَّقاق[٦٠]، الذي يشكو إلى اللهِ تعالى ما فعله الزَّمان به، وهو بالنتيجةِ عذلٌ خفيٌّ مقدَّرٌ :

خليليَّ مـا عُـذْري إلى الرَّكـبِ بعـدمـا تَقضَّـــــتْ لـيـاليهمْ ولم يَنْقَضِ العمرُ

بكيـتُ فلم يقضِ البكـا حقَّ مَـدْمَعٍ حيـاتيَ يومـاً بعـد فُرْقَتِـهِ غَـدْرُ

إلـى الله أشـــكو نيّـةً بعـدَ نيّـةٍ يُكلفنـا منـهـا عوائـدَهُ الـدَّهرُ

ألا ليـتَ شـــعري والحوادثُ جمّـةٌ ... متى يَرْعَوي عنْ جَهْلِهِ الحادثُ البكرُ
أفـي كـلِّ يـومٍ لابـنِ دأيـةَ فَتْكَـةٌ ... عوانٌ بســـاحـاتِ المنـازلِ أو بِكرُ
لقـد ســـعـتِ الأيّـامُ بيني وبينكمْ ... بكفٍّ لـهـا نظمٌ وأُخرى لـهـا نثرُ

فالشَّـاعرُ هنا يتمنى أن ينقضـيَ عمرهُ ليلحقَ بأحبَّتِهِ، الذين انقضـتْ لياليهم وماتوا، وخلفوا البكاءَ بعدهم، عاجزًا عن مجابهةِ الدَّهرِ، الذي يصرُّ على إنزالِ البلاءِ بهِ، من دونِ رويةٍ، أو هوادة، متسائلًا متى تكفُّ الحادثاتُ عن النزولِ، والظعنِ بالأحبَّةِ؟ ففي كلِّ يومٍ فتكةٌ متكررةٌ، لمنزلٍ خيمتْ عليه من قبل، ثم ســلبتْ روحًا جديدةً من أرواحِ ساكنيهِ، أو بطشـةٌ بكرٌ جديدةٌ حلَّتْ حديثًا على ساحةٍ أخرى، ولا فرق بينَ ذلك؛ لأنَّ الفقدَ واحدٌ، والألمَ الذي يسببه ذاتَهُ. إنَّ تكرارَ السؤالِ علامةٌ فارقةٌ في النَّصِّ، استطاعَ الشَّـاعرُ من خلالِهِ أن يؤكدَ شـدَّةَ البلاءِ النَّازلِ عليه، فضـلًا عن حجمِ الألمِ الذي يَتَملكهُ، والانكسارِ النَّفسيّ الذي يعاني منه، ولا سيّما وأنَّ جوابَهُ معلومٌ، يرتبط بالقدرِ المحتومِ، الذي لا مفر منه، وهذا يأخذنا إلى غرضِ الشَّـاعرِ، المتمثل بالكشـفِ عن عوالم نفســهِ المنهزمةِ، التي لا تمتلكُ إلا الشَّــكوى من آثارِ الزَّمانِ، ولومه على ما أنزله عليه، وســببه له. ولم يكتفِ ابن الزقاق بلومِ الدَّهرِ في نصٍّ واحدٍ بســببِ فقدِ الأحبَّةِ، وإنما نجده يصــبُّ جماحَ غضــبهِ عليه في أكثرِ من قصــيدةٍ رثائيةٍ، تحملُ الحزنَ والتأوه، ومن ذلكَ قوله [٦١]:

رامتْ صُـــروفُ الحادثاتِ فأدركت ... مَنْ كـان لم يـبـعـدْ عـلـيـه مـرامُ
تَـعِـسَ الـزَّمَـانُ فـإنَّـمـا أيـامـه ... وَمـقـامـنـا فـي ظِـلِّـهـا أَحـلامُ
فَتَـكَ الردى بِـأبي شُـــجـاعٍ فَتكـةً ... زلَّـت لهـا رضـــوى وخرَّ شـــمـامُ
الليـلُ بعـدك ســـرمـدٌ لا ينقضـــي ... فـكـأنـمـا ســـاعـاتُـهُ أعـوامُ
والأنْـسُ غـمٌّ والســـرورُ كـآبـةٌ ... والـنـومُ سُـــهْـدٌ والـحـيـاةُ حـمـامُ

فهو يبينُ أنَّ نوائبَ الدَّهرِ الفتاكةَ سعتْ، فحصـدتْ من لم يتركْ مطلبًا من المجدِ إلا ونالـه، عند ذاك يدعو على الزَّمانِ الجائرِ بالتَّعثُرِ، والانكِبَابِ عَلَى وَجْهِهِ، والْهَلَاكِ؛

لأنَّ استمرارَ البقاءِ في أيامِهِ مجردُ أحلامٍ، وهو اللَّومُ بعينهِ، ثم يحاولُ أن يُفصلَ في آلامِهِ وأحزانهِ بعدَ فقدِ عزيزِهِ، ويعكسَ الأجواءَ النَّفسيةَ الدَّاخليةَ للمتلقي .

إنَّ وصفَ الدَّهرِ بالخَؤونِ تُعدُّ شتيمةً صريحةً من الشَّاعرِ، وهي تدلُّ على المنازعةِ والمخاصمةِ، وقد جاءت هذهِ الصفةُ المذمومةُ متكررًا عندَ بعضِ الشُّعراءِ، إذ لم تقتصرْ على ابن الزقاق، وإنما نجدُ ابن عبدون ينظرُ له النَّظرةَ ذاتها؛ لما لقيه منه من هولِ تقلباتهِ، وخديعةِ لياليه، وقسوةِ طابعهِ، إذ يقولُ (٦٢):

رُوَيدَكَ أَيُّها الدَهرُ الخَؤونُ ... سَتَأكُلُنا وَإِيّاكَ المَنونُ
تعلّلنا الأَماني وَهيَ زورٌ ... وَتَخدَعُنا اللَيالي وَهيَ خونُ
وَكَم غَرَّت بِزبرجِها قُرونا ... فَما أَبقَت وَلا بَقَتِ القُرونُ
فُجِعتُ بِزاهِرٍ مِن سِرِّ فهرٍ ... كَبَدرِ التَمِّ هالَتهُ عرينُ
فَأَنضَبَتِ المَنايا مِنهُ بَحرًا ... جَواريهِ صُفونٌ لا سَفينِ
مَضى مَن لَو سَبَقتُ لما تَعَزّى ... وَلا جَفَّت لَهُ بَعدي جُفونُ
وَأَبقَتني يَدُ الأَيّامِ فَردًا ... كَما غَدَرَت بِيُسراها اليَمينُ

يصف الشَّاعرُ الدَّهرَ بالخَؤون، ويَطلبُ منه التَّروي والتَّمهلَ في قذفِ المنايا عليهم؛ لأنَّها ستأكلهم وإياه، وهو لومٌ صريحٌ موجهٌ بشكلٍ مباشرٍ، فيه من المشاعرِ السَّلبيةِ الشَّيء الكثير، لإثباتِ الجرمِ المرتكبِ، المتمثلُ بقسوةِ المنايا التي تحطُّ عليهم، وسرعةِ بطشِها بهم، وتسويفِه للأماني المنتظرةِ، وخداعةِ الليالي وخيانتها لهم، وتغريرهم بزينةِ الدنيا الزائفةِ للتعلقِ بحبالِها، من دونِ فائدةٍ تذكرُ، فسرعان ما ينقضي الأجلُ، ويفنى العمرُ كفناءِ القرونِ الماضيةِ. ثم يُبينُ في البيتِ الرابعِ بأنَّه مفجوعٌ بعزيزٍ له، كالبدرِ التَّمامِ في حسنهِ وروعته، وهو تشبيهٌ دقيقٌ أسهمَ في زيادةِ إبداعِ الشَّاعرِ، وجاءَ كمحاولةٍ منه لتقديمِ صورةٍ نورانيةٍ للفقيدِ؛ لزيادةِ الأثرِ في المتلقي، ثم يمتطي بعد ذلك المجازَ ليُبينَ كيف أَنضَبَتِ المَنايا وأنفدَتْ حياةَ صديقِهِ الشَّبيه بالبحرِ، لمضي صاحبهُ الذي لو كان هو المُعزى بالشَّاعرِ لما جفَّت دموعهُ من الحزنِ عليه، وإخلاصهِ له، ويبقى وحيدًا فريدًا بفعلِ الأيامِ، مشبهًا غدرها له كغدرِ

اليد اليسرى باليمنى في الجَسدِ الواحدِ، لتقريبِ الصورةِ للمتلقي، وبيانِ قرب منايا الزَّمانِ من الإنسانِ .

إنَّ تكرارَ الشَّاعرِ لمفردةِ الخيانةِ في هذا النَّصّ، وتعزيزها بمفردةِ الغدرِ يؤكدُ لنا حجمَ المشاعرِ السلبيةِ التي تركنُ في نفسِهِ باتجاه الدَّهرِ وضروبِهِ، وحجمَ العجزِ الذي يعانيه أمامه، وحجمَ الألمِ النفسيّ الذي سببهُ له بأخذهِ لعزيزِهِ، وحجمَ الوحدةِ التي أصبحَ فيها بعدهُ، والتي أفقدته الأملَ بالمستقبلِ، فضلًا عن التَّأكيدِ على عدمِ الثِّقةِ بالدُّنيا، والانجزارِ خلفَ ملذاتِها الزَّائلةِ .

خامسًا : لوم الدَّهر لضياعِ المدنِ وفناءِ الحكامِ والأقوامِ

يَعدُّ رثاءُ المدنِ الزائلةِ والملوكِ الفانيةِ من الاتجاهاتِ التي أبدعَ فيها الشُّعراءُ الأندلسيون، في عصرِ الطوائفِ، والعصورِ التي لحقته، واستطاعوا أن يعبّدُوا له طريقًا قائمًا بذاتهِ، بقصائدَ طويلةٍ مؤثرةٍ، جادتْ فيها قرائحهم، وأنبأتْ عن حسرةٍ وألمٍ عظيمينِ، وحملتْ سمةً بارزةً صادقةً من سماتِ الانفعالاتِ، التي حزَّتْ بالقلوبِ فألهبتها، وقرَّت بالنّفوسِ فآلمتها، وفجرَّتْ على الألسنِ أناتٌ، وسالتْ بها الأقلام عبرات(٦٣)، وألقتْ باللَّومِ على الدَّهرِ وضُروبِهِ، مُحملةً إياهُ ما جرى، ولا سيّما وأنَّهم أهلُ عاطفةٍ رقيقةٍ، وإحساسٍ مرهفٍ، ووجدانٍ حيٍّ، يؤثرُ فيهم المصابُ، وتحزنهم النازلة(٦٤)، ومنهم ابن عبدون، الذي أبدعَ في أكثرِ من قصيدةٍ بهذا الاتجاه، وتركَ بصمةً خالدةً في جبينِ الشِّعرِ الأندلسي، ملقيا باللَّومِ على الدَّهرِ؛ لأنَّه أزالَ المدنَ عَامَّةً، ومزقَ الدولَ قاطبةً، وأفنى الحكامَ جميعًا، متهمًا إياهُ بالغدرِ، والخيانةِ، والتَّغريرِ بالآخرينَ، ليأخذهم بعنفٍ، من دون أن يسالمَ أبدًا، إذ يقول (٦٥):

الدَهرُ يُفجِعُ بَعدَ العَينِ بِالأَثَرِ ... فَما البُكاءُ عَلى الأَشباحِ وَالصُوَرِ

فَالدَهرُ حَربٌ وَإِن أَبدى مُسالَمَةً ... وَالبيضُ وَالسودُ مِثلُ البيضِ وَالسُمرِ

فَلا تَغُرَّنكَ مِن دُنياكَ نَومَتُها ... فَما صِناعَةُ عَينَيها سِوى السَهَرِ

ما لِلَّيالي أَقالَ اللَهُ عَثرَتَنا ... مِنَ اللَيالي وَخانَتها يَدُ الغيرِ

تَسُرُّ بِالشَيءِ لَكِن كَي تغرّ بِهِ ... كَالأَيمِ ثارَ إِلى الجاني مِنَ الزَهرِ

كَم دَولَةٍ ولِيَت بِالنَصرِ خدمَتها ... لَم تُبقِ مِنها وَسَل ذِكراكَ مِن خَبَرِ

هَوَت بِـدارا وَفَلَّـت غَربَ قـاتِلـهِ ... وَكـانَ عَضـــبًا عَلى الأَملاكِ ذا أثرِ
وَاِستَرجَعَت مِن بَني ساسانَ ما وَهَبَتْ ... وَلَـم تَـدَع لِـبَـنـي يـونـانَ مِـن أَثَـرِ
وَأَلحَقَت أُختَها طسـمًا وَعـاد عَلى ... عـادٍ وَجُرهُم مِنهـا نـاقِض المِرَرِ
وَمـا أَقـالَـت ذَوي الهَيئـاتِ مِن يَمَنٍ ... وَلا أَجارَت ذَوي الغاياتِ مِن مُضَـرِ
وَمَزَّقَت سَـبَأً في كُلِّ قـاصِـيَـةٍ ... فَمـا اِلتَقى رائِحٌ مِنهُم بِمُبتَكرِ
وَأَوثَقَـت في عُراهـا كُـلَّ مُعتَمِـدٍ ... وَأَشـرَقَـت بِقَـذاهـا كُـلَّ مُقتَـدِرِ
وَرَوَّعـت كُـلَّ مَـأمـونٍ وَمُـؤتَـمـنٍ ... وَأَسـلَمَت كُلّ مَنصـورٍ وَمُنتَصِـرِ
وَأَعـثَـرَت آلَ عَـبّـادٍ لَـعًـا لَـهُـمُ ... بِـذَيـلِ زَبّـاءَ لَم تنفِر مِنَ الـذُعرِ
بَـنـي الـمُـظَـفَّـرِ وَالأَيّـامُ لا نَـزَلَـت ... مَراحِـل وَالوَرى مِنهـا عَلى سَـفَرِ
وَطَوَّقَت بِالمَنايا السـودِ بيضَـهُمُ ... فَاِعجَب لِذاكَ وَما مِنها سِـوى الذِكرِ

فالشَّاعرُ يرى أنَّ الدَّهرَ حربٌ ضروسٌ، محتْ كلَّ الحضاراتِ، وأهلكتْ جميعَ الملوكِ، ويشبهُ صباحَهُ الأبيضَ بالسَّيفِ، وليلَهُ الأسودَ بالرمحِ الأسمرِ، ويصف منایاه بالسَّوداءِ، والأجيالَ الفانيةَ بالبيضاءِ؛ لتصويرِ قسوةِ الأيامِ وبطشِها بدقةٍ، معتمدًا بذلكَ على توظيفِ الألوانِ في أكثرِ من بيتٍ؛ لأنَّ اللّونَ يمعنُ ((إمعانًا سافرًا في التَّدخُّلِ، والتَّمثُّلِ، والتَّأثيرِ، والتَّغييرِ، والمشاركةِ حتى يبلغَ قلبَ الجوهرِ الشِّعريّ، مسهمًا في تشكيلِ لغتِه وصورتِه، وبناءِ أنموذجِه، فضلًا عن امتزاجِهِ باللُّغةِ الشِّعريةِ، واشتغالِه على توجيهِ حيواتِها بطاقتِها السيميائيةِ المكونةِ في بؤرةِ اللُّغةِ))[٦٦]. ثم نجدُ الشَّاعرَ بعد ذلكَ يحذرُ من غدرِ الزَّمانِ، وخيانتِهِ، وينبهُ من الاغترار بالدُّنيا؛ لأنَّها لا تورثُ إلا السَّهرَ، وإن سرَّت بشيءٍ ما. واللَّومُ بارزٌ جليٌّ من خلالِ هذا التصويرِ المخيفِ، وهذهِ الرؤيةِ السوداويةِ، التي جعلت من الدَّهرِ كائنًا حيًّا فتاكًا، يدمرُ ويزيلُ ويميتُ، وكأنَّ ابن عبدون يقولُ له وجهًا لوجهٍ أنت من فعلَ كذا وكذا، وهو ما يعكسُ لنا صورةً شاخصةً للحالةِ النَّفسيةِ لشاعرنا، تحملُ بأجزائها الانكسارَ والضعفَ والتسليمَ للقدرِ المحتومِ. ويستمرُ ابن عبدون بلومِ الدَّهرِ لفتكهِ بالأممِ والدولِ من دونِ رويةٍ وهوادةٍ، مكررًا قوله: (ما لِلَّيالي أَقالَ اللهُ عَثرَتَنا منها) في النَّصينِ، فيقولُ [٦٧] :

سَـلني عَنِ الدَهرِ تَسـأَل غَيرَ إِمَّعَةٍ ... فَـأَلقِ سَـمعَكَ وَاِسـتَجمِع لِإيرادي

نَعَم هُوَ الدَهرُ ما أَبقَت غَوائِلُهُ ... عَلى جَديسٍ وَلا طسمٍ وَلا عادِ
أَلقَت عَصاها بِنادي مَأرِبٍ وَرَمَت ... بِآلِ مامَةَ مِن بَيضاءَ سِندادِ
وَأَسلَمَت لِلمَنايا آلَ مَسلَمَةٍ ... وَعَبَّدَت لِلرَزايا آلَ عَبّادِ
ما لِلَّيالي أَقالَ اللَهُ عَثرَتَنا ... مِنها تُصَرِّعُ أَضداداً بِأَضدادِ
فَلَّت قَنا سَمهَرٍ شُلَّت أَنامِلُها ... بِعودِ طَلحٍ وَأَسيافاً بِأَغمادِ

فهو يحملُ غوائلَ الدَّهرِ فناء هذهِ الأقوام، بلا رحمةٍ ممكنةٍ، داعيًا الله تعالى أن يرفعَ ذُلَّ الليالي عنهم، متمنيًا أن تُشلَّ أنامل هذهِ الليالي، وهو تمني يستحيلُ وقوعه، وهذا لومٌ لا غبارَ عليه، مع اقترانهِ بالتذمرِ من أثارهِ، الأمر الذي يعكسُ معاناة الشَّاعرِ النَّفسيةَ مع الزَّمنِ، وكمية الأسى والألم الذي أصابه بسببهِ. ومن الشُّعراءِ الذين ساروا على هذا النَّهجِ، ونقشوا على صخورهِ نصًّا رائعًا، يفصحُ عن ثقافةِ الشَّاعرِ وسعةِ اطلاعهِ، ويفتحُ النَّوافذَ على عوالم نفسِهِ الدَّاخليةِ، ويتركُ الأثرَ في وجدانِ المتلقي، ويحملُهُ على الاتعاظِ، هو الأعمى التُّطيلي، الذي قالَ[٦٨]:

خُذا حَدِّثاني عن فُلٍ وفُلانِ ... لعلّي أرى بَاقٍ عَلى الحَدثَانِ
وَعَن دُولٍ جُسنَ الديارَ وأهلِهَا ... فَنِيْنَ وَصرفُ الدَّهْر ليس بفانِ
وعن نخلتَيْ حُلوان كيف تَنَاءَتا ... ولم تَطْويا كشحاً على شنآنِ
وطالَ ثواءُ الفرقدين بِغِبْطَةٍ ... أما علما أَن سوفَ يَفْترِقانِ
وزايلَ بين الشعريين مُصَرِّفٌ ... مِنَ الدَّهرِ لا وانٍ ولا مُتَوانِ
وهيهاتِ من جورِ القضاءِ وعَدْله ... شآميةٌ ألوتْ بِدَيْنِ يمانِ
فأجمعَ عنها آخرَ الدَّهرِ سَلْوَةً ... على طَمَعٍ خَّلاهُ للدَّبرانِ
وأعْلَنَ صَرْفُ الدَّهْرِ لابْنيْ نُوَيْرَةٍ ... بيوم ثناءٍ غالَ كلَّ تداني
وكانا كَنَدْماني جذيمةَ حِقْبَةً ... من الدَّهْرِ لو لم تَنْصَرِمْ لأوان
فضاعتْ دموعٌ بات يَبْعَثُها الأسى ... يُهَيّجِهُ قبرٌ بكلِّ مكانِ
ومالَ على عبسٍ وذبيانَ مَيْلَةً ... فأَوْدى بِمَجْنيٍّ عليه وجاني
وأَنْحَى على ابني وائلٍ فَتَهَاصَرا ... غُصُونَ الرَّدى من كَزةٍ وَلِدَانِ
وأمْضى على أَبناءِ قَيْلَةَ حُكْمَهُ ... على شرسٍ أدْلَوْا به وَليانِ

ولو شـــاءَ عُدوان الزَّمَان ولم يَشـــا لـكـانَ عـذيرَ الـحـيّ مـن عَـدَوَانِ
وأيُّ قبيـلٍ لم يُصـــــدَّعْ جَمِيعُهُمْ بِـبَـكْـرٍ مـن الأرْزَاءِ أو بِـعَـوانِ

فهو يُشـــددُ على فكرةِ الزَّوالِ الحتمي بطلبِ إخبارهِ عمَّن غيبتهم منية الموتِ، وعن الدُّولِ الفانيةِ، ويحاولُ ترسـيخَها في الذَّهنِ بتوظيفِهِ لأسـماءِ بعضِ الأقوامِ المندثرةِ، موثقًا كيف عصـــفَتْ قوى الزَّمانِ بهم واحدًا تلو الآخر، والدَّهْر ليس بفانٍ، مخلفًا الدُّموع التي يبعثُها حُزنًا، تهيجُهُ قبورهم المُتَنَاثِر، لتقفَ نفسهُ مكبوحةً مقهورةً أمامَ هذا الواقعِ المريرِ، وكيفَ لها أن تسـتقرَ ويدُ الدَّهرِ تلاحقُها لتعبثَ بها، وتهددها بالفناء، ببكرٍ من المنايا، التي لا يمكن ردها بشكلٍ من الأشكالِ. وكأنَّ الشَّاعر هنا يرفعُ رايةَ الاستسلامِ والخضوعِ له، على الرغم من لومهِ والشَّكوى من آثارهِ .

نلحظُ من النُّصوصِ التي وظفناها في هذهِ الدِّراسةِ أنَّها تنبعُ من واقعٍ متوترٍ مأساويّ، من لحظةِ الفقدان، والتَّفتتِ، والأسـى، والتَّمزقِ، ثم يبدأُ الشَّـاعرُ باسـتكمالِ بنيتهِ عن طريقِ سـبلٍ متنوعةٍ، متباينة، فلحظةُ ولادة معظم النُّصـوصِ هي لحظةٌ مفجعةٌ؛ أي أنَّ الحاضـرَ لا صـفة له، ولا سـمة سـوى أنَّه حاضـر التَّغييرِ، الانكسـارِ، والتَّفجعِ. وقليلة هي النُّصـــوصِ التي تبدأُ فعلًا بلحظةِ الحيويةِ والخصـــبِ، والجمالِ والفرحِ الغامرِ، وتستمرُ لتُنَمي هذهِ الرؤيا، والانفعالات التي تفيض منها(٦٩).

ومن خلالِ هذهِ النُّصـوصِ الشِّـعريةِ وغيرها يمكننا أن ندركَ خصـوصـيةَ لُغة الشِّـعرِ، التي انمازت بها عن نصـــوصِ النَّثرِ، تلكَ الخصـــوصـــية تمثلت بالحدسِ اللُّغوي للاسـتعمالِ، الذي بدأَ معيارًا معقولًا عندَ الشَّـاعرِ، وقد أتاح له هذا أن يُوصـلَ تجربتهُ الشِّعرية بتفوقٍ، وقدرةٍ على تقديمِ هذهِ التجربةِ تقديمًا شعريًّا عميقًا مؤثرًا (٧٠).

الخاتمةُ :

١. اختلفتْ الأسـبابُ التي حملتْ الشَّـاعرُ على عذلِ الدَّهرِ، إلا أنَّ النتائجَ جاءتْ متقاربةً إلى حدٍّ ما، إذ وجدنا الحزنَ يخيمُ على النُّصـــوصِ جميعِها، والمشـــاعرَ السلبيةَ واضحة فيها، والضعفَ النَّفسي يطفو عليها .

٢. اختلفَ حجمُ اللَّومِ بينَ نصٍّ وآخر، فهناك منَ الشُّعراءِ من وصلَ إلى حدِّ نعتهِ بالخؤونِ، والمخادعِ، والغدَّارِ، وغير ذلكَ، وأخر أكتفى باللَّومِ الخفي المقدَّرِ، الذي يستترُ خلفَ الشَّكوى، ويظهرُ بارزًا بعد إمعانِ النَّظر في النَّصّ .

٣. إنَّ اللَّومَ والبكاءَ والشَّكوى والحزنَ على ما يبدو هي وسائلُ الشَّاعر الوحيدةُ التي يمكن له أن يطرقَ بابها ليُعبرَ عمَّا بداخلهِ، بعدما أصابته رزايا الدَّهر، ففي معظم النُّصوصِ وجدنا ذلكَ واضحًا جليًّا فيها .

٤. إنَّ الشُّعراءَ من خلالِ لومهِ للدَّهرِ، أو الدُّنيا، أو الزَّمنِ استطاعوا أن يوصلوا رسالةً مفادها أنَّ على الإنسانِ عدم الاغترارِ بالدُّينا، والانجرارِ خلف ملذاتِها غير الدَّائمةِ، وإن سرَّتْ يومًا ما؛ لأنَّها ستنقلبُ مع الوقتِ، ويتحولُ الفرحُ لحزنٍ، السعادةُ لشقاءٍ. وخلف ذلك تكمنُ الحكمةُ المؤكدةُ بأنَّ الفناءَ هو المصيرُ المنتظرُ، وأنَّ الدُّنيا زائلةٌ لا محالة .

٥. إنَّ لومَ الدَّهرِ الذي نهجهُ شُعراء عصري الطَّوائف والمرابطين أظهرَ ضعفَهم على مواجهةِ خطوبِه المتنوعةِ، وكشفَ عوالمَ أنفسهم المهزومةِ المنكسرةِ .

٦. إنَّ الدَّهرَ لم يفرق بينَ آمنٍ أو مروعٍ، وكانَ يبطشُ بالجميع من دون استثناءٍ، فقد حاولَ الشَّاعرُ الأندلسي تصويرَهُ بوصفهِ كائنًا حيًّا لا يمكن الوقف بوجههِ، وترسيخ ذلكَ في ذهنِ المتلقي .

المصادر والمراجع :

❖ **القرآن الكريم .**

١. الأدب العربي في الأندلس، محمد عيسى، مطبعة الاستقامة، القاهرة ، د.ط ، ١٩٣٦ م .

٢. الأدبية ، د. مصطفى ناصف، دار الأندلس، بيروت – لبنان ، ط٢، ١٩٨٣م .

٣. الإنسان والزمان في الشعر الجاهلي ، حسني عبد الجليل يوسف ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، د.ط ، ١٩٩٨م .

٤. آيات الرحمن في خلق الإنسان ، د. صلاح الأجاوي ، مؤسسة الرحاب الحديثة ، بيروت – لبنان ، د. ط ، ٢٠١١م .

٥. تاج العروس من جواهر القاموس ، محمّد مرتضى الحسيني الزَّبيدي ، تحقيق: جماعة من المختصين من إصدارات: وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت – المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت ، أعوام النشر: (١٩٦٥ – ٢٠٠١ م) .

٦. التشكيل الجمالي للخطاب الأدبي الكردي ، الهوية والمتخيل ، د. محمد صابر عبيد ، دار غيداء للنشر والتوزيع ، عمان – الأردن ، ط ١ ، ٢٠١٥م .
٧. جدليَّة الإنشطار الزمنيّ في شِعر نجاة سنجب ، د. شربل ميلاد توما ، مجلة أوراق ثقافية، العدد ٤ ، بيروت – لبنان ، ٢٠١٩م .
٨. الجسد في الشعر العربي قبل الإسلام ، مؤيد محمد صالح اليوزبكي، مجلة آداب الرافدين، جامعة الموصل ، كلية الآداب ، العدد ٤٠ ، ٢٠٠٥م .
٩. جماليات التحليل الثقافي ، الشعر الجاهلي نموذجًا ، د. يوسف عليمات ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، دار فارس ، عمان – الأردن، ط١ ، ٢٠٠٤م .
١٠. جماليات المفارقة النصيةِ ، قراءة بدائية في ديوان (مجروح قوي) لمحمد صبحي ، أ.د أسامة عبد العزيز جاب الله ، مقال على موقعِ ديوانِ العربِ ، ٢٠٠٨م ، الشبكةُ العنكبوتية .
١١. الدهر في الشعر الأندلسي دراسة في حركة المعنى , د. لؤي علي خليل , دار الكتب الوطنية , أبو ظبي ، الإمارات العربية المتحدة , ط ١ , ٢٠١٠ م .
١٢. ديوان ابن الزقاق البلنسي ، تح ، عفيفة محمود دبراني ، دار الثقافة ، بيروت ، د ط ، د ت .
١٣. ديوان ابن حمديس ، صححه وقدّم له: د. احسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ط ، د.ت .
١٤. ديوان ابن خفاجة ، تح : عبد الله سترة ، دار المعرفة، بيروت ، ط ١ ، ٢٠٠٦م .
١٥. ديوان ابن عبدون ، تح : سليم التنير ، دار الكتاب العربي ، دمشق ، د ت ، ١٩٨٨م .
١٦. ديوان الأعمى التطيلي ، جمعه وحققه وشرحه : محي الدين ديب ، المؤسسة الحديثة للكتاب ، بيروت – لبنان ، ط ١ ، ٢٠١٤ م .
١٧. ديوان زهير بن أبي سلمى ، شرحه وقدم له الأستاذ علي حسين فاعور ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط ١ ، ١٩٨٨م .
١٨. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢هـ) ، تح : إحسان عباس ، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس ، ط ٢ ، ١٩٨١ م .
١٩. الرؤى المقنعة نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي ، كمال أبو ديب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، د ت ، د ط ، ١٩٨٦م .
٢٠. زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر ، لأبي بحر صفوان بن إدريس التجيبي، اعتنى بنشره وتهذيبه والتعليق عليه: عبد القادر محداد ، بيروت – لبنان ، ١٣٥٨هـ – ١٩٣٩ م .
٢١. الزمان الوجودي، د. عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة، بيروت – لبنان ، د ط ، ١٩٧٣م .
٢٢. الشخصية الإنسانية في التراث الإسلامي، دراسة مقارنة ، نزار العاني ، المعهد العالمي للفكرِ الإسلامي بالتعاون مع دار الفرقان للنشر والتوزيع ، بيروت – لبنان، ط ٢، ٢٠٠٥م .

٢٣. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت ٣٩٣هـ)، تح : أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين – بيروت ، ط ٤ ، ١٩٨٧ م .

٢٤. ظاهرة الشكوى في شعر هذيل , بتول البستاني , رسالة ماجستير , كلية الآداب , جامعة الموصل , ١٩٨٧ م .

٢٥. ظاهرة العَذل في الشعر الجاهلي دراسة تحليلية ، د. رعد أحمد علي ، مجلة كلية التربية الأساسية ، العدد ٧٥ ، ٢٠١٢ م .

٢٦. فكرة الزمان عبر التاريخ، مستشار التحرير: كولن ولسون، ترجمة: فؤاد كامل، مرجعة: شوقي جلال، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للفنون والثقافة والآداب، الكويت ، مارس ١٩٩٢م .

٢٧. قلق الموت وعلاقته بالصحة النفسية لدى عينة من المسنين، دراسة مقارنة بين المسنين القائمين بدور المسنين وأقرانهم العاديين، أريج خليل محمد ، رسالة الماجستير، بإشراف ، د. نبيل كامل محمد ، كلية التربية– برنامج علم النفس، الجامعة الإسلامية، غزة، أغسطس ٢٠١٦م .

٢٨. القيم الجمالية في الشعر الأندلسي – عصري الخلافةِ والطوائف ، د . آزاد محمد كريم الباجلاني ، المكتبة المركزية في جامعة الانبار ، ط ١ ، ٢٠١٣م .

٢٩. كتاب التعريفات ، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت ٨١٦هـ)، ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر ، دار الكتب العلمية بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٣م .

٣٠. لسان العرب ، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقي (ت ٧١١هـ)، الحواشي: لليازجي وجماعة من اللغويين ، دار صادر ، بيروت – لبنان ، ط ٣ ، ١٤١٤ هـ .

٣١. لغة الجسد في أشعار الصعاليك ، تجليات النفس واثرها في الصورة ، د. غيداء قادرة ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، سلسلة الدراسات (١) ، ٢٠١٣م .

٣٢. اللغة العليا النظرية الشعرية ، جون كوين ، تر : د. أحمد درويش ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة – مصر ، د. ط ، ١٩٩٥م .

٣٣. مجموعة: دائرة المعارف الإسلامية، يصدرها بالعربية، أحمد الشنتناوي وإبراهيم زكي خورشيد وعبد الحميد يونس، مراجعة: محمد مهدي علاّم، دار المعرفة، بيروت، د.ط، ١٩٣٣م .

٣٤. المسألة الفلسفية في شعر جوزف حرب ، المحبرة نموذجا ، د. جان نعوم طنوس ، دار النهضة العربية، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، ٢٠١٤م .

٣٥. المشكلة الخلقية، مشكلات فلسفية، د. زكريا إبراهيم، مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٩٦٩م .

٣٦. معجم مقاييس اللغة ، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت ٣٩٥هـ) ، تح : عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٩٧٩م .

٣٧. المفاضلات في الأدب الأندلسي ، الذهنية والأنساق ، أدي ولد آب ، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات ، الدوحة – قطر ، ط١ ، ٢٠١٥ م .
٣٨. ملامح الأصالة في الشعرِ الأندلسي ، جلال صابر حجازي ، اطروحة دكتوراه ، جامعة الأزهر ، مصر ، ١٩٧٤ م .
٣٩. ممنوعة من الصرف – أفكار ومفاهيم، علي محمد اليوسف، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن ، ط١ ، ٢٠١٧م .
٤٠. موسوعة لالاند الفلسفية ، اندريه لالاند ، تعريب : خليل أحمد خليل ، مراجعة : أحمد عويدات ، منشورات عويدات ، بيروت – لبنان ، ط ٢ ، ٢٠٠١م .
٤١. الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ) ، دار الكتب الاسلامية ، قم – إيران ، د. ط ، د ت .
٤٢. نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد، إبراهيم بن ناصف بن عبد الله (ت ١٣٢٤هـ)، مطبعة المعارف – مصر ، ١٩٠٥ م .
٤٣. هاجس الخلود في الشعر العربي قبل الإسلام : دكتور محمود عبد الله الجادر ، مجلة آفاق عربية ، العدد (١٠) ، تشرين الأول ، ١٩٨٦م .
٤٤. الوجه البلاغي وأثره في السياق الشعري الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين ٤٢٢هـ – ٥٤٠هـ ، د. محمد عبيد السبهاني، دار غيداء للنشر والتوزيع ، عمان – الأردن ، ط ١ ، ٢٠١٣م .

---

(١) ينظر : لسان العرب : ٥٥٧/١٢ .
(٢) نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد، إبراهيم بن ناصف بن عبد الله : ١٠٩/٢ .
(٣) ينظر : القرآن الكريم ، سورة الإسراء ، الآية : ٢٩ .
(٤) ينظر : القرآن الكريم ، سورة إبراهيم ، الآية : ٢٢ .
(٥) ينظر : ظاهرة العَذل في الشعر الجاهلي دراسة تحليلية : ١٣٩ .
(٦) ظاهرة الشكوى في شعر هذيل , بتول البستاني : ١٧ .
(٧) ينظر : لسان العرب : ٢٩٢/٤ – ٢٩٣ . وينظر : الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية : ٦٦١/٢ .
(٨) تاج العروس من جواهر القاموس ، محمّد مرتضى الحسيني الزَّبيدي : ٣٤٧/١١ .
(٩) معجم مقاييس اللغة ، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي : ٣٠٥/٢ .
(١٠) ينظر : القرآن الكريم ، سورة الجاثية ، الآية : ٢٤ .
(١١) ينظر : القرآن الكريم ، سورة الإنسان ، الآية : ١ .
(١٢) الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠١ هـ) : ٦٦/٢٠ .
(١٣) كتاب التعريفات ، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت ٨١٦هـ) : ١٠٥ .
(١٤) ينظر : مجموعة : دائرة المعارف الإسلامية، يصدرها بالعربية : أحمد الشنتناوي : ٣٩٠/١٠.

(١٥) ينظر : جدليَّة الإنشطار الزمنيّ في شِعر نجاة سنجب ، د. شربل ميلاد توما : ٨٧ .
(١٦) موسوعة لالاند الفلسفية ، اندريه لالاند ، تعريب : خليل أحمد خليل : ١٤٣٣/١ – ١٤٣٤ .
(١٧) ينظر : ديوان زهير بن أبي سلمى ، شرحه وقدم له الأستاذ علي حسين فاعور : ١٢٣ .
(١٨) الزمان الوجودي ، د. عبد الرحمن بدوي : ١٥٩ .
(١٩) ينظر : ديوان ابن الزقاق البلنسي : ٢٧٦ – ٢٧٧ .
(٢٠) ينظر : هاجس الخلود في الشعر العربي قبل الإسلام : دكتور محمود عبد الله الجادر : ١١٣ .
(٢١) ينظر : ديوان ابن حمديس ، صححه وقدّم له : د. احسان عباس : ١٧ .
(٢٢) ينظر : ديوان الأعمى التطيلي ، جمعه وحققه وشرحه : محي الدين ديب : ١٥٨ .
(٢٣) الأَزْيَحِيُّ : الرَّجُلُ الْوَاسِعُ الخُلُق النَّشِيطُ إِلى الْمَعْرُوفِ يَرْتاح لِمَا طَلَبْتَ ويَراحُ قَلْبُه سُرُورًا . ينظر : لسان العرب : ٤٦٠/٢ .
(٢٤) المشكلة الخلقية ، مشكلات فلسفية ، د. زكريا إبراهيم : ٢١٢ .
(٢٥) ينظر : المفاضلات في الأدب الأندلسي ، الذهنية والأنساق ، أدي ولد آب : ٤٢٧ .
(٢٦) ينظر : ديوان ابن خفاجة ، تح : عبد الله سترة : ٣٢٦ .
(٢٧) ينظر : ديوان الأعمى التطيلي : ١٠٩ .
(٢٨) فكرة الزمان عبر التاريخ ، مستشار التحرير : كولن ولسون ، ترجمة : فؤاد كامل : ١٥١ .
(٢٩) لغة الجسد في أشعار الصعاليك ، تجليات النفس واثرها في الصورة : ٢٣ .
(٣٠) جماليات التحليل الثقافي ، الشعر الجاهلي نموذجًا ، د. يوسف عليمات : ١٧٨ .
(٣١) الجسد في الشعر العربي قبل الإسلام ، مؤيد محمد صالح اليوزبكي : ١٨٢ .
(٣٢) ينظر : المسألة الفلسفية في شعر جوزف حرب ، المحبرة نموذجا : ١٩٥ .
(٣٣) الإنسان والزمان في الشعر الجاهلي ، حسني عبد الجليل يوسف : ١٩ .
(٣٤) ينظر : الشخصية الإنسانية في التراث الإسلامي، دراسة مقارنة ، نزار العاني : ١٩٢ .
(٣٥) ينظر : ديوان الأعمى التطيلي : ١٣٥ – ١٣٦ .
(٣٦) الإلُّ : الحَرْبة . ينظر : لسان العرب : ٢٤/١١ .
(٣٧) الحِسْل: وَلَدُ الضَّبِّ . ينظر : لسان العرب : ١٥١/١١ .
(٣٨) ينظر : الصورة الأدبية ، د. مصطفى ناصف : ٦ .
(٣٩) ينظر : ديوان ابن خفاجة : ١٩ .
(٤٠) ينظر : ديوان ابن خفاجة : ٣٢٧ .
(٤١) ينظر : جماليات المفارقة النصيةِ ، قراءة بدائية في ديوان (مجروح قوي) لمحمد صبحي .
(٤٢) ينظر : المشكلة الخلقية : ٢٢٢ .
(٤٣) ينظر : زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر : ٨٩ .
(٤٤) ينظر : ديوان ابن الزقاق البلنسي : ٨٩ .
(٤٥) التَّأْنِيبُ : المُبالغة فِي اللَّومِ التَّوْبِيخ والتَّعْنيف . ينظر : لسان العرب : ٢١٧/١ .
(٤٦) المِقْوَل : اللِّسَانُ . ينظر : لسان العرب : ٥٧٥/١١ .
(٤٧) الذَّرِبُ : الحادُّ مِنْ كلِّ شيءٍ . ينظر : لسان العرب : ٣٨٥/١ .

(٤٨) الوجه البلاغي وأثره في السياق الشعري الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين ٤٢٢هـ -٥٤٠هـ : ٦٥ .
(٤٩) ينظر : آيات الرحمن في خلق الإنسان ، د. صلاح الأجاوي : ٢٩٨ .
(٥٠) القرآن الكريم ، سورة النساء : [الآية : ٢٨].
(٥١) المشكلة الخلقية : ٢١٤ .
(٥٢) ينظر : ديوان ابن خفاجة : ٦١ – ٦٢ .
(٥٣) القيم الجمالية في الشعر الأندلسي – عصري الخلافةِ والطوائف : ٣١٦ .
(٥٤) قلق الموت وعلاقته بالصحة النفسية لدى عينة من المسنين : ١٠ .
(٥٥) ينظر : ممنوعة من الصرف – أفكار ومفاهيم، علي محمد اليوسف : ١١٩ .
(٥٦) ينظر : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني : ٨٢٧/٤ .
(٥٧) ينظر : ديوان ابن عبدون ، تح : سليم التنير : ١٣٧ .
(٥٨) لا أبا لكَ : هي كلمة ذمّ في أصلها ، وتعني لَمْ يَترك لَهُ مِنَ الشَّتِيمة شَيْئًا ولا لا يُعرف له أبٌ . ينظر : لسان العرب : ١٣/١٤ .
(٥٩) القيم الجمالية في الشعر الأندلسي : ٢١٩ .
(٦٠) ينظر : ديوان ابن الزقاق البلنسي : ١٧٠ – ١٧١ .
(٦١) ينظر : ديوان ابن الزقاق البلنسي : ٢٦٠ – ٢٦٢ .
(٦٢) ينظر : ديوان ابن عبدون : ١٨٦ .
(٦٣) ينظر : ملامح الأصالة في الشعرِ الأندلسي ، جلال صابر حجازي : ٥٣٣ .
(٦٤) ينظر : الأدب العربي في الأندلس ، محمد عيسى : ١٣٣ .
(٦٥) ينظر : ديوان ابن عبدون : ١٤٠ – ١٤١ .
(٦٦) التشكيل الجمالي للخطاب الأدبي الكردي ، الهوية والمتخيل ، د. محمد صابر عبيد : ٢٣٤ .
(٦٧) ينظر : ديوان ابن عبدون : ١٢٧ – ١٣٠ .
(٦٨) ينظر : ديوان الأعمى التطيلي : ٢٣٨ – ٢٤٣ .
(٦٩) ينظر : الرؤى المقنعة نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي ، كمال أبو ديب : ٤٨٣ .
(٧٠) ينظر : اللغة العليا النظرية الشعرية ، جون كوين ، تر : د. أحمد درويش : ١٩ .